الكلية الاكليريكية اللاهوتية للأقباط الأرثوذكس

مذكرات في تاريخ الكنيسة القبطية

بعد مجمع خلقيدونية

الأنبا يوأنس

الكليـة الاكليريكيـة اللاهـوتيـة

مـذكـرات فـى

تـاريـخ الكنيسـة القبطيـة

منـذ مجمـع خلقيـدونيـة حتى قيـام الـدول المستقلـة

فـى ظـل الخـلافـة الاسـلامية

الانبـا يـوأنـس

١٩٧٩ م = ١٦٩٥ ش

" الشرق بعد مجمع خلقيدونية وحتى الفتح العربى "

(٤٥١ - ٦٤١)

==========

كانت النتيجة المباشرة لقرارات مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م ، هى الانقسام الاول لكنيسة المسيح . فقد وصمت الكنائس الغربية ، الكنائس الشرقية على أنها مونوفيزية Monophysite (= تؤمن بطبيعة واحدة فى المسيح) ، بينما وصفت الكنائس الشرقية الكنائس الغربية بأنها Diophysite (تؤمن بطبيعتين فى المسيح) . وقد قاد أقباط مصر حركة المونوفيزتة (= الارثوذكسية) فى كل الشرق ... على أنه يجب أن ننظر الى هذا الامر - بالاضافة الى كونه موضوعا ايمانيا - على أنه تعبير خارجى لنمو الاتجاهات القومية فى مصر ضد الامبريالية البيزنطية المتزايدة ، التى بلغت أقصى مدى فى حكم جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) .

وقد بلغ الجدل اللاهوتى بين الارثوذكسيين (المونوفيزيين) فى كنيسة الاسكندرية وبين أصحاب مذهب الطبيعتين فى روما و القسطنطينية مبلغا تجاوز حد اللياقة . وكان هو أساس الصدع الذى حدث بين الكنائس الشرقية والغربية ... لكننا لا نبحث هذا الامر بالتفصيل على المستوى اللاهوتى ، لأن هذا لايدخل فى دراستنا فى مادة التاريخ الكنسى .. لقد تأثرت العوامل التاريخية الخاصة بهذا الصراع من جراء كثرة التعقيد والتشابك ، ولذا تعتبر دراسة تلك الفترة من أكثر المواضيع تعقيدا وصعوبة ... لقد اتهم الغربيون كنيسة الاسكندرية بالاوطاخية ، كنتيجة للتآمر الذى حدث فى خلقيدونية ضدها . فى الوقت الذى اعتبرت كنيسة الاسكندرية الاوطاخية بدعة حرمتها مرارا وتكرارا ، لانها علمت بأن طبيعة المسيح الناسوتية تلاشت فى طبيعتة الالهية . هذا بينما يؤمن الاقباط (كنيسة الاسكندرية) بأن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين وأن طبيعتى المسيح اللاهوتية والناسوتية صارا طبيعة واحدة من - باتحادهما الفائق السرى - بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ... وقد أثبت آباء كنيسة الاسكندرية ومعلموها هذا المعتقد السليم ، مستندين الى نصوص الكتاب المقدس ، و ماقرره مجمع نيقية المسكونى الأول سنة ٣٢٥ ، وتعاليم القديس كيرلس الكبير فى مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ .

والدوافع التى دفعت كنيسة روما والقسطنطينية على وجه الخصوص ، الى اتخاذ هذا الموقف المعين من كنيسة الاسكندرية والكنائس الشرقية ، أمر لايحتاج الى كثير عناء لاظهاره .. فقد كان لآباء الكنائس الشرقية ، وبالاخص آباء كنيسة الاسكندرية الدور القيادى فى المجامع المسكونية الثلاثة الاولى ... يكفى أن نقرأ للمؤرخ ستانلى فى كتابه " محاضرات عن الكنائس الشرقية " المطبوع فى اكسفورد سنة ١٨٦٤ قوله " وأصبح بطريرك الاسكندرية بعد مجمع نيقية قاضى المسيحية فى المسكونة كلها ". ويكفى أن نقرأ فى تاريخ المجمع المسكونى

الاول بينيقية عن الملك قسطنطين الكبير أنه وقف وسط المجمع الكبير الذى ضم ٣١٨ أسقفا من أنحاء العالم المسيحى ، ليصافح الشماس اثناسيوس (البابا اثناسيوس فيما بعد) ، ويقول له " أنت بطل كنيسة الله " ... ثم يأتى المجمع الرابع الذى انعقد فى أفسس سنة ٤٤٩م برآسة البابا ديسقورس وتسيطر عليه كنيسة الاسكندرية ... كل هذا ، كان له أثر عميق فى المدينتين الامبراطوريتين روما والقسطنطينية ... ان وصف الغرب لمجمع أفسس الثانى بأنه " مجمع اللصوص " ليظهر مدى الغيظ الذى أعتمل فى نفوس هؤلاء الغربيين ضد كنيسة الاسكندرية وآبائها . وكدليل على مدى هذا الغيظ ، فقد وحد مركيان وكنائس الغرب جهودهم فى حشد اكبر عدد من الاساقفة الغربيين فى مجمع خلقيدونية بلغوا نحو ستمائة اسقف ، اجتمعوا لينقضوا قرارات مجمع افسس الثانى ، وليؤكدوا بصورة علنية تقدم كرسى الامبراطورية فى روما على سائر كراسى العالم المسيحى .

لقد حاولت السلطة الحاكمة فى القسطنطينية فرض تعليم مجمع خلقيدونية بالقوة على الكنائس الشرقية . لكن هذه الكنائس — وفى مقدمتها وعلى رأسها كنيسة الاسكندرية لم تلن لها قناة ، وتصدت لهؤلاء الهراطقة مهما بلغت مناصبهم ، وفضلت أن يتجدد عصر الاستشهاد على أن يفرطوا فى الأمانة أو يعوجوها ... وهكذا قامت الفتن ، واختل الامن فى بلاد كثيرة ، لاسيما فى مصر وفلسطين وسوريا وبلاد مابين النهرين (العراق الحالية) ، وأرمينيا وفارس (ايران الحالية) ...

وفى ٧ فبراير سنة ٤٥٢ أصدر مركيان مرسوما يقضى بعزل الاكليروس وأصحاب المناصب فى الدولة ان هم ناقشوا موضوع الايمان بصورة عامة وعلنية . أما بالنسبة لغير الموظفين فى الدولة ممن يقيمون فى القسطنطينية فكان جزاؤهم النفى خارجها وتقديمهم للمحاكمة ... توفيت بلكاريا (بلخاريا pulcheria) سنة ٤٥٣ غير مأسوف عليها . وأثار مركيان اضطهادا عنيفا ضد الارثوذكسيين . واستشهد فى هذا الاضطهاد عديد من الاساقفة والكهنة والرهبان والمؤمنين فى الشرق ، ممن رفضوا الخضوع لقرارات وتعليم خلقيدونية ... أما الاساقفة الذين زاغوا عن الحق ارضاء للملك الهرطوقى وطمعا فى مآرب خاصة ، فقد كانوا سببا فى اهدار دماء زكية لاسيما فى فلسطين ومصر .

ان ماحدث فى مجمع خلقيدونية من هزيمة لكنيسة الاسكندرية على المستوى المسكونى ، ومحاولة اذلالها بحرم ونفى بطريركها البابا ديسقورس ، لم يكن هو خاتمة المطاف فى ذلك الصراع ، بل كان هو البداية ... وصل رسول امبراطورى الى الاسكندرية يحمل قرارا بعزل البابا ديسقورس وتعيين القس الاسكندرى بروتيريوس Proterius (٤٥٢ — ٤٥٧) . وقد تم ذلك بالقوة المسلحة . والى جانب هذا القرار كان رسول الملك مركيان يحمل معه

رسالة امبراطورية بمعاقبة كل من يجروء على العصيان • على أن الاقباط لم يقبلوا هذا الوضع وأضرموا نار ثورة في الاسكندرية وتجدد عصر الاستشهاد ثانية • ولكن على يد مسيحيين ••• قيل ان عدد من سقطوا قتلى في هذا الاستشهاد يعدون بالآلاف (ذكر البعض أن عددهم بلغ اربعة وعشرين الفا) معظمهم من الاساقفة والكهنة والرهبان ••• ومن بين من استشهدوا القديس مقاريوس اسقف ادكو ٤٥٢ م بالصعيد • كان بالاسكندرية وحاول والى الاسكندرية أن يرغمه على أن يوقع قرارات مجمع خلقيدونية ، لكنه رفض • فما كان من أحد الجنود الا أن ركله في بطنه بقوة فسقط على الارض ميتا نظرا لشيخوخته ••• أما بقية الاساقفة الذين رفضوا التوقيع فقد نالهم النفى والتشريد •

توفى مركيان في فبراير سنة ٤٥٧ ، وخلفه لاون الأول (٤٥٧ — ٤٧٤) ، فاتخذ هـا السكندريون فرصة لرسامة بطريركا خلفا للبابا ديسقوروس المعترف الذى تنيح في منفاه فـى ٤ سبتمبر سنة ٤٥٤ • وهكذا رسم البابا تيموثاوس الثانى البطريرك ٢٦ في ١٦ مارس سنة ٤٥٧ ، ويعرف في المراجع باسم تيموثاوس ايلوروس Aelurus • وتبع ذلك ان انشقت اسقفية الاسكندرية بين سلسلتين من البطاركة : الملكانيين Melkites وكانوا من الـروم (الاغريق) ، وتتم رساماتهم في القسطنطينية غالبا ، ويخضعون لمجمع خلقيدونيـــة • والسلسلة الأخرى الارثوذكسيين (مونوفيزيين) وكانوا وطنيين أقباط تمسكوا بقوميـتهـم ورفضوا زعامة وسيطرة الروم والخلقيدونيين ••• لكن رسامة البابا تيموثاوس الثانى ، وما تبعها من عقده مجمعا بالاسكندرية حرم مجمع خلقيدونية وبروتيريوس الدخيل ، جعلت والــى الاسكندرية يلقى القبض على البطريرك تيموثاوس ويبعده الى ابوصير Taposiris أما النتيجة فكانت مزيد من القتلى •

في بداية الأمر لم تنظر السلطة المدنية بعين الاكتراث الى هذا الصدع الجديد الـذى حدث في كنيسة الاسكندرية نتيجة اقامة بطريرك دخيل يفرض عليهم من الخلقيدونـيين • لكن خطورة الموقف بدت واضحة حينما استغل شعب الاسكندرية فرصة انشغال حاكمـهـا بمحاربة الوندال بشمالى افريقيا وقبائل البلميين Blemyes في صعيد مصر ، فانقضـوا على بروتيريوس الأمر الذى انتهى الى قتله وسحله في شوارع الاسكندرية ، واحرقوا جثتـه وذروا رمادها في الهواء امعانا في التشفى والانتقام • وكان ذلك في ٢٨ مارس سنة ٤٥٧ •• وانتهى الأمر بصدور قرار الملك لاون بنفى البابا تيموثاوس الثانى الى جزيرة غنغرة فـى بفلاجونيا Gangra in Paphlagonia حيث نفى البابا ديسقوروس • وان كانوا قد نقلوه الى منفى آخر ••• أما البابا تيموثاوس الثانى فقد كرس جهوده فـى المنفى للكتابة ضد النساطرة والخلقيدونيين والاوطاخيين •

بعد نفى البابا تيموثاوس أثام الخلقيد ونيين بالاسكندرية بطريركا دخيلا خلفا لبروتيريوس دعوه تيموثاوس ايضا وهو المعروف باسم تيموثاوس سالوفاكيولس Salophaciolus وكان تعيينه بقرار من الامبراطور زينون Zeno . لكن الشعب قاطعه ، وكانوا يقصدون الاديرة للصلاة . لكنهم كانوا لا ينفكون عن رفع الاحتجاجات الى الامبراطور طالبين اعادة البابا تيموثاوس ثانية من المنفى ... وما أن تولى زينون حتى لجأ اليه أقباط الاسكندرية الارثوذكسيين يلتمسون عودة بطريركهم تيموثاوس الثانى من المنفى . لكن القائد باسيليسكوس Basiliscus تمكن من عزل زينون وحل مكانه . وبدو أن باسيليسكوس أراد ان يستعين بقوة الارثوذكسيين فأصدر أمرسنة ٤٧٦ باعادة البابا تيموثاوس من المنفى . وفعلا ترك منفاه ووصل الى القسطنطينية حيث استقبل استقبالا حارا بواسطة المؤمنين وحل ضيفا على البلاط الملكى . وهناك زاره كثيرون للاستشفاء والتبرك ... ترك القسطنطينية الى الاسكندرية وعرج على أفسس . وفى الاسكندرية استقبل استقبالا حافلا من كل الشعب والاكليروس والرهبان والراهبات ، وهم يهتفون " مبارك الآتى باسم الرب " ... ودخل الكنيسة الكبرى بعد أن غادرها البطريرك الدخيل ... ومما هو جدير بالذكر أن البابا تيموثاوس — بموافقة الامبراطور — نقل جسد البابا ديسقوروس فى صندوق فضى الى الاسكندرية حيث جنز فى احتفال مهيب كمعترف ، ووضع جسده فى مدفن الاباء البطاركة .

ومما يذكر أنه فى سنة ٤٧٦ حين تقابل البابا تيموثاوس الثانى مع الملك باسيليسكوس ، طلب الى الملك أن يصدر مرسوما بحرم طومس لاون والزيادة التى أضافها مجمع خلقيدونية على الايمان النيقاوى ... استجاب باسيليسكوس لهذا المطلب وعقد مجمعا فى القسطنطينية حضره خمسمائة اسقف يتقدمهم البابا الاسكندرى تيموثاوس ، ومار بطرس الثانى الانطاكى فحرموا المجمع الخلقيدونى ولاون الرومانى وطومسه ... وضع صيغة قرار المجمع الراهب بولس أحد الرهبان الوافدين من الاسكندرية وأصدر به منشورا عاما وفيه أعلن وجوب التمسك بالايمان النيقاوى الذى ثبتته ثلاثة مجامع مسكونية فى القسطنطينية سنة ٣٨١ و وافسس الاول سنة ٤٣١ ، وافسس الثانى سنة ٤٤٩ . كما أمر باحراق طومس لاون وتعليم مجمع خلقيدونية حيثما وجد ... وقد وقع هذا القرار تيموثاوس الاسكندرى وبطرس الانطاكى وبولس الافسسى ومعه أساقفة آسيا الصغرى والشرق ، وانستاسيوس الاورشليمى واساقفة ولايته وغيرهم نحو سبعمائة اسقف . أما أكاكيوس Acacius بطريرك القسطنطينية فقد تردد فى التوقيع .

الملك زينون والارثوذكسيين :
==============

لم يستسغ أكاكيوس بطريرك القسطنطينية للنصر الذى أحرزه الارثوذكسيين بقيادة البابا تيموثاوس . حرض الاكليروس والرهبان فى القسطنطينية ، واغلق الكنائس ، ونظم مظاهرة

صاحبة ضد باسيليسكوس مدعيا أنه هرطوقى . فاضطر باسيليسكوس الى الغاء مرسومه السابق لاسيما وأن الظروف السياسية كانت فى غير صالحه ، اذ أن زينون كان قد أعد جيشا كبيرا لمقاتلته واسترداد عرشه ... وفعلا انتهى الامر بعودة زينون وطرد باسيليسكوس فى سبتمبر سنة ٤٧٦ . وبعودته أصدر مرسوما بالغاء منشور باسيليسكوس الدينى ونفى بولس الافسسى وبطرس الانطاكى ، وارسل يتهدد البابا تيموثاوس الاسكندرى ، لكن هذا الاخير تنيح سنة ٤٧٧ ... وأقام الارثوذكسيين بطريركا خلفا لتيموثاوس هو بطرس الثالث المعروف باسم بطرس منغوس Mongus (٤٧٧ — ٤٩٠) البطريرك ٢٧ ، وكان هو أحد تلاميذ البابا ديسقوروس ورئيس شمامسة كنيسة الاسكندرية ... عقد مجمعا فور تنصيبه وقرر حرم مجمع خلقيدونية ولاون وطومسه ... فأرسل اليه الملك زينون يتوعده ، فأخذ يتخفى فى بيوت المؤمنين بالاسكندرية ... وفى نفس الوقت أعاد الملك البطريرك الخلقيدونى تيموثاوس سالوفاكيولوس Salophaciolus لكنه توفى سنة ٤٨٢ ... توسل الاقباط لدى الامبراطور زينون أن يجعل بطريركهم بطرس منغوس هو البطريرك الوحيد ، لكن الامبراطور رفض طلبهم ، واقيم بطريركا خلقيدونيا هو يوحنا طلايا Talaia كان يحوز على مساندة روما ، لكنه لم يكن على علاقة ود مع دوائر القصر والكنيسة بالقسطنطينية . وانتهى أمر هذا الدخيل بالهرب الى روما ... وفى هذا الوقت بدأ التقارب بين أكاكيوس بطريرك القسطنطينية (٤٧١ — ٤٨٩) وبطرس الثالث (منغوس) البطريرك السكندرى ، فى الوقت الذى أخذ زينون يفقد الأمل فى كسب الارثوذكسيين (المونوفيزيين) فى الاسكندرية عن طريق العنف وبات واضحا انه لابد من التفكير فى ايجاد حل لاعادة السلام للكنيسة الذى يؤثر بدوره على سلام الامبراطورية ووحدتها .

+ الهنوتيكون Henoticon :

========================

كانت الفكرة الجديدة لحل المشكلة الدينية هو ما عرف باسم الهنوتيكون أى وسيلة الاتحاد أو عمل الاتحاد أو كتاب الاتحاد أو مرسوم الاتحاد . كانت الميول الاولى لكل من الامبراطور زينون والبطريرك القسطنطينى أكاكيوس خلقيدونية . لكن ثورة باسيليسكوس — وان كانت وقتية — لكنها أثبتت لكليهما بدون شك مدى قوة الارثوذكسيين (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) وأهمية مسالمتهم . لذا كان من الضرورى أن توضع صيغة ايمان يقبلونها بدلا من صيغة الايمان الخلقيدونى ... والحقيقة أن واضع الهنوتيكون كان هو اكاكيوس . كان يهدف الى العودة بالكنيسة الى المفهوم اللاهوتى السابق لخلقيدونية أى قبل الانقسام ... وفى سنة ٤٨٢ تمكن من اقناع الامبراطور زينون — دون كبير عناء — بالموافقة على المحاولة الجديدة . لقد اعترف الهنوتيكون بقرارات المجامع المسكونية الثلاثة الاولى ،

وحرم كل من نسطور وأوطاخى واتباعهما . ولم يتعرض للنقطة الحساسة وسبب الانقسام وهى الخاصة بطبيعة المسيح . وحرم كل من يؤمن بايمان آخر ...

كان المرسوم فى صورة رسالة موجهة من الامبراطور زينون الى " الاساقفة والاكليروس والرهبان والمؤمنين فى الاسكندرية ومصر وليبيا والخمس مدن الغربية " .

أما خلاصة الهنوتيكون فكانت كالآتى :

" بما أن الايمان الذى لاعيب فيه وحده ينجينا وأمور الجيش ، لذلك قدم الينا
" محبو الله رؤساء الأديرة والرهبان عرائض ملتمسين فيها بدموع أن يتم اتحاد
" الكنائس المقدسة فتنضم الى بعضها البعض . تلك الاعضاء التى فرقها عدو
" الخير منذ زمن ، حتى مات بعض المؤمنين بدون اقتبال سر العماد ، وآخرون
" بدون تناول القربان المقدس . فضلا عن سقوط ربوات من القتلى ، الذين
" بدمائهم الغزيرة تخضبت الأرض والهواء . ولذلك فقد قررنا نحن والكنائس الارثوذكسية
" فى كل مكان ، ورؤساء الكهنة الذين يدبرونها ، الا نعرف ايمانا آخر سوى
" الذى وضعه الآباء القديسون الذين اجتمعوا فى افسس وحرموا نسطور
" ومن نسجوا على منواله . فنحرم نحن ايضا نسطور واوطاخى اللذين علما خلافا
" للايمان المذكور . ونقبل الفصول الاثنى عشر التى كتبها الطيب الذكر ومحب
" الله كيرلس الذى كان رئيس اساقفة كنيسة الاسكندرية الجامعة . ونعتقد بأن
" الوحيد ابن الله والاله يسوع المسيح ، الذى نزل وتجسد حقا من الروح القدس
" ومن مريم العذراء والدة الاله ، والذى هو من طبع الآب باللاهوت ومن
" طبعنا بالناسوت (١) ، هو واحد لا اثنان (٢) ، وأن العجائب والالام التى احتملها
" بالجسد هى لهذا الوحيد ابن الله الواحد (٣) . أما الذين يميزون (٤) ، أو يبلبلون
" أو يقولون بالخيال (٥) ، فلا نقبلهم البتة . ذلك أن التجسد الحقيقى المنزه عن
" الخطيئة الذى من والدة الاله لم يزد على الابن شيئا . فقد ظل الثالوث
" ثالوثا ، وما بعد تجسد الاله الكلمة الواحد من الثالوث ايضا . اننا نكتب بهذا
" اليكم لا لنعلن ايمانا جديدا ، لكن لنبين أننا نحرم كل من ارتأى أو يرتأى
" شيئا آخر سواء أكان ذلك فى مجمع خلقيدونية أم فى أى مجمع آخر ، ولاسيما
" نسطور واوطاخى ، والذين ينسجون على منوالهما " .

ملاحظة :

نلاحظ أن العبارة الموضوع فوقها (١) هى ضد أوطاخى ، والموضوع فوقها (٢) هى ضد نسطور ، والموضوع فوقها (٣) هى ضد طومس لاون والموضوع فوقها (٤) نفى النساطرة والخلقيدونيين .

وواضح مما تقدم أن الهنوتيكون كان خطوة كبيرة نحو تفكير الارثوذكسيين القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح ... كانت النتيجة المباشرة هو التقارب بين كنيستي الاسكندرية والقسطنطينية ، على الرغم من أن كنيسة روما لم ترحب بالأمر برمته ، بل ذهبت الى ما هو أبعد من هذا في الاتجاه المضاد .

في ذلك الوقت سنة ٤٨٢ توجه بعض علماء الاسكندرية ليشفعوا لدى زينون في بطريركهم البابا بطرس الثالث (منغوس) . وحالما التقوا بالملك بسطوا أمامه ما حل بالمؤمنين والكنائس من شدائد من جراء مجمع خلقيدونية . اقتنع الملك بعودة البطريرك بطرس الى كرسيه بشرط أن يقبل الهنوتيكون ويوقع عليه ، ويدخل في شركة مع الاساقفة الآخرين الذين يقبلونه .

رد الفعل في الاسكندرية :

بدراسة الهنوتيكون وجد البابا بطرس أنه لا يضاد الايمان الارثوذكسي . فهو يقبل ايمان وقرارات المجامع الثلاثة الاولى المسكونية نيقية والقسطنطينية وافسس ، وحرومات كيرلس الكبير الاثنى عشر ، ويشجب نسطور واوطاخي ... ومن ثم فقد قبله ووقع عليه ، ووعد بأن يقبل في شركته الذين يرجعون تائبين ومعترفين بما في الهنوتيكون ... وفي الكنيسة الكبرى بالاسكندرية أخذ يفسر للاكليروس والرهبان والمؤمنين مضمون الهنوتيكون ، موضحا أنه يتضمن الايمان الصحيح ، شارحا لهم لماذا قبله ...

لكن بعض الاكليروس المغالين تحفظوا ضد الهنوتيكون ، محتجين بخلوه من حرم صريح للزيادة التي أدخلها المجمع الخلقيدوني على الايمان . وأخذوا يناهضون البطريرك بطرس لقبوله ، وعلى وجه الخصوص كيف يصبح في شركة مع الخلقيدونيين . وكادت تحدث فتنة كبيرة لولا أنه حرم علنا طومس لاون ومجمع خلقيدونية . وشرح لهم لماذا قبل في شركته من قبلوا الهنوتيكون الذي نقض كل ما أضيف الى المجامع الثلاثة الأولى ، حتى لو كانوا قبلا خلقيدونيين .

رد الفعل في روما :

عقد فيلكس أسقف روما مجمعا سنة ٤٨٤ حرم فيه اكاكيوس ، على الرغم من القبض على مندوبيه وحبسهم في القسطنطينية بأمر زينون ... أما رد الفعل في القسطنطينية فكان حذف اسم اسقف روما من القداسات . لقد حدثت ثغرة بين القسطنطينية وروما عرفت في الكنيسة الكاثوليكية باسم انقسام اكاكيوس . وقد دامت هذه الفرقة نحو ٣٥ عاما .

خلفاء زينـــون :
==========

على الرغم من وفاة أكاكيوس سنة ٤٨٩ وبطرس منغوس سنة ٤٩٠ والملك زينون سنة ٤٩١ ، فقد ظل الهنوتيكون مرعيا من الامبراطور الجديد انستاسيوس الاول (٤٩١ ــ ٥١٨) . وكان على أساقفة القسطنطينية أن يوقعوا على الهنوتيكون عند تنصيبهم ... وظل الأمر علـى هذا النحو حتى توفى انستاسيوس ... كانت تلك الفترة هى التى برز فيها القديـــس ساويرس الانطاكى (٥١٢ ــ ٥١٨) المحامى الكبير عن عقيدة الطبيعة الواحدة فى عظاتـه اللاهوتية الشهيرة .

حدث رد الفعل عند ما تبوأ الامبراطور جوستين الاول (٥١٨ ــ ٥٢٧) للعرش الامبراطورى يساعده ابن عمه جستنيان وكانا خلقيدونيين ... عزل ساويرس الانطاكى ، وانقذ حياتـه بالهرب الى مصر . اعيدت الوحدة بين كنيستى القسطنطينية وروما بواسطة هورميسداس Hormisdas اسقف روما ، الذى ارسل مندوبين الى القصر الامبراطـــــــــورى فى القسطنطينية بصيغة أخرى للايمان ، فيها يلعن يحرم اوطاخى ونسطوريديسقـــــــروس واكاكيوس ، وكل اصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة .

تبوأ جستنيان العرش (٥٢٧ ــ ٥٦٥) ، وأحس كخليفة للقياصرة الرومان ، أن عليـه واجبا ، هو أن يعيد الامبراطورية الرومانية . وفى نفس الوقت أراد أن يكون لها ايمان واحد وقانون واحد وكنيسة واحدة ... هذه باختصار كانت سياسة جستنيان ... وهكذا بـــدأ جستنيان العمل فى القضية الايمانية اللاهوتية . صمم على تحقيق الوحدة فى الكنيسة كخطوة أساسية لتحقيق طموحه فى السيطرة على الكنيسة ... كان خلقدونيا وبدأ يظهر ميـــــولا نحو الخلقدونيين لكنه تراجع عن الدخول فى نزاع مع الارثوذكسيين اصحاب مذهب الطبيعـــة الواحدة ... كانت زوجته الامبراطورة ثيودورا Theodora ارثوذكسية فى الخفـــاء ، ودافعت عن الارثوذكسيين وشجعتهم بكل ما أوتيت من قوة ، وما استطاعت الى ذلك سبيلا ، لكن بحكمة حتى لاتثير ثائرة الامبراطور . كانت ثيودورا امرأة متدينة ، ذا شخصية قوية ، ظهر نفوذها فى تشكيل سياسة الدولة الدينية . وبفضل جهودها سمح جستنيان للاساقفة الارثوذكسيين المنفيين بالعودة الى ديارهم وكراسيهم . كما دعا كثيرين من الارثوذكسيـين الى القسطنطينية الى مؤتمر دينى للتصالح ، وطلب اليهم أن يناقشوا كل الاسئلة التى يكتنفها الشك مع خصومهم ... وهكذا تمكن ساويرس الانطاكى أن يأتى فى أمان الى القسطنطينية سنة ٥٣٣ على رأس مجموعة قوية من مصر لهذا الغرض ، ومكث هناك سنة كاملة . لكن اجراء أو قرارا حاسما لم يتخذ ، فقد كانت المشكلة بما يكتنفها من تيارات خفية وأهواء شخصية أعقد من أن تحل .

وكخطوة نحو الاثوذكسيين أصدر جستنيان في سنة ٥٤٤ مرسوما أدان فيه ثلاثة من عمد النسطورية عرفوا باسم الثلاثة فصول Tria Kephalaia وهم تيودور من مبسيستيا Theodore of Mopsuestia وثيودوريت من قورش Thedoret of Cyrus وايباس من اديسا Ibas of Edessa وقد رحبت كنائس الشرق بادانتهم ، بينما تذبذبت كنائس الغرب بين قبول هذا المرسوم أو رفضه ... ولم تهدأ المسألة التي اثارها مرسوم جستنيان المعروف باسم الثلاثة فصول الا بموت جستنيان ، وارتقاء الامبراطور جوستن الثاني (٥٦٥ — ٥٧٨) ، الذي أصدر هنوتيكون آخر سنة ٥٧١ .

أحـــوال مصـــر :

تميزت أحوال مصر السياسية خلال تلك الفترة بسوء التنظيم الاداري . ولعل الخلافات الدينية كانت سببا جوهريا ساعد على ذلك ... كان في مصر الملكانيون تسندهم قوات الدولة . بينما الارثوذكسيين كان عليهم أن يعتمدوا على قدراتهم في كل المجالات .... كما تميزت تلك الفترة بنمو الاحساس بالقومية المصرية ، الامر الذي كان يقوده ويغذيه الارثوذكسيين ... كانت هذه هي حالة البلاد بينما كان البرابرة يحومون كالجوارح على حدود مصر ... وازاء هذه الحالة قسّم جستنيان مصر الى قسمين اداريين : الاسكندرية والوجه البحري وجعل له حاكما ، وصعيد مصر وجعل له حاكما آخر ، كانت خطة جستنيان التخفيف عن كاهل الحاكم الواحد لكل البلاد ، لكن عملية التقسيم بذرت بذور التنافس وسوء التنظيم بين الحاكمين لاقليم واحد .

كما استحدث جستنيان أمرا خطيرا كان له أسوأ الاثر على نفسية الاقباط ومستقبل مصر السياسي . فحينما نصب ابولينارير Appollinaris لكرسي الاسكندرية سنة ٥٤١ م قلده بالاضافة الى وظيفته الدينية سلطات عسكرية لتنفيذ سياسته الدينية . وما لبث أن أعطى هذا البطريرك الملكاني حق جمع ضرائب مباشرة لصيانة الكنائس والرهبنة . كانت هذه سابقة خطيرة لمن أتى بعده من الاباطرة ... لقد اعطوا لأنصارهم الوسائل التي مكنتهم بها أن ينكلوا بخصومهم الدينيين ويجددوا الاضطهاد الديني مرة اخرى في صورة أخرى بين المسيحيين والمسيحيين ... كانت بداية المأساة على يد الاسقف الملكاني ابولينارييس الذي حاول كبح جماح العناصر الارثوذكسية الهائجة . فكانت النتيجة مذبحة رهيبة مروّعة ...

ومما يذكر بالخير لجستنيان اهتمامه بالقضاء على الوثنية التي كانت ماتزال حية في اطراف

وكخطوة نحو الاثوذكسيين أصدر جستنيان فى سنة ٥٤٤ مرسوما أدان فيه ثلاثة من عمد النسطورية عرفوا باسم الثلاثة فصول Tria Kephalaia وهم تيودور من مبسيستيا Theodore of Mopsuestia وثيودوريت من قورش Theodoret of Cyrus وايباس من اديسا Ibas of Edessa وقد رحبت كنائس الشرق بادانتهم ، بينما تذبذبت كنائس الغرب بين قبول هذا المرسوم أو رفضه ... ولم تهدأ المسألة التى اثارها مرسوم جستنيان المعروف باسم الثلاثة فصول الا بموت جستنيان ، وارتقاء الامبراطور جوستن الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) ، الذى أصدر هنوتيكون آخر سنة ٥٧١ .

أحـــوال مصـــر :

تميزت أحوال مصر السياسية خلال تلك الفترة بسوء التنظيم الادارى . ولعل الخلافات الدينية كانت سببا جوهريا ساعد على ذلك ... كان فى مصر الملكانيون تسندهم قوات الدولة . بينما الارثوذكسيين كان عليهم أن يعتمدوا على قدراتهم فى كل المجالات .... كما تميزت تلك الفترة بنمو الاحساس بالقومية المصرية ، الامر الذى كان يقوده ويغذيه الارثوذكسيين ... كانت هذه هى حالة البلاد بينما كان البرابرة يحومون كالجوارح على حدود مصر ... وازاء هذه الحالة قسّم جستنيان مصر الى قسمين اداريين :
الاسكندرية والوجه البحرى وجعل له حاكما ، وصعيد مصر وجعل له حاكما آخر ، كانت خطة جستنيان التخفيف عن كاهل الحاكم الواحد لكل البلاد ، لكن عملية التقسيم بذرت بذور التنافس وسوء التنظيم بين الحاكمين لاقليم واحد .

كما استحدث جستنيان أمرا خطيرا كان له أسوأ الاثر على نفسية الاقباط ومستقبل مصر السياسى . فحينما نصب ابوليناريس Appollinaris لكرسى الاسكندرية سنة ٥٤١ م قلده بالاضافة الى وظيفته الدينية سلطات عسكرية لتنفيذ سياسته الدينية . وما لبث أن أعطى هذا البطريرك الملكانى حق جمع ضرائب مباشرة لصيانة الكنائس والرهبنة . كانت هذه سابقة خطيرة لمن أتى بعده من الاباطرة ... لقد اعطوا لأنصارهم الوسائل التى يمكنهم بها أن ينكلوا بخصومهم الدينيين ويجددوا الاضطهاد الدينى مرة أخرى فى صورة أخرى بين المسيحيين والمسيحيين ... كانت بداية المأساة على يد الاسقف الدخيل ابوليناريوس الذى حاول كبح جماح العناصر الارثوذكسية الهائجة . فكانت النتيجة مذبحة رهيبة مروّعة ...

ومما يذكر بالخير لجستنيان اهتمامه بالقضاء على الوثنية التى كانت ماتزال حية فى اطراف

كانت الخطة التى وضعها هرقل أن يضغط على الفرس فى أماكن قريبة نسبيا من القسطنطينية حتى يضطرهم للانسحاب من مصر . وبالفعل تم ذلك سنة ٦٢٧ ، وتمكن هرقل من استعادة الصليب المقدس ووضعه فى القبر المقدس باورشليم .

عادت مصر ثانية الى الحكم البيزنطى ، لكن هرقل لم يستفد شيئا من الدرس القاسى ولم يكتف بأنه أحيا سياسة جستنيان فى مصر ، بل بالغ فيها بزيادة . فقد عيّن بطريركا ملكانيا ، صار هو حاكم مصر كلها فى نفس الوقت ، مع منحه سلطات دينية وحربية ومالية وتنظيمية وقضائية واسعة ... وفى محاولة جديدة لكسب فريق الارثوذكسيين من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ، دون أن يخسر الخلقيد ونيين الغربيين ، لجأ الى صياغة ايمانية جديدة تحل محل الهنوتيكون الذى لم يحقق النجاح الكامل ... اتحد هرقل مع سرجيوس بطريرك القسطنطينية (٦١٠ — ٦٣٨) ، وأعلن فى سنة ٦٢٢ العقيدة الجديدة التى عرفت باسم " المونوثيليتية " Monotheletism وهى القول بمشيئة واحدة فى المسيح ، على أمل أن تحل محل الاعتقاد بطبيعة واحدة فى المسيح فى الاقاليم الهائجة فى سوريا ومصر .

ودون التعرض للموضوع الحساس المتشعب الخاص بطبيعة المسيح ، وهل هو طبيعة واحدة أم طبيعتين ، ركزت المونوثيليتية على وحدة مشيئتى المسيح الناسوتية واللاهوتية وانهما كانتا متطابقتين ، متوافقتين ، غير متنافرتين ... كان هرقل يأمل أن يقبل الارثوذكسيين الصيغة الجديدة ، وهى فى نفس الوقت لا تتعارض مع انصار خلقيدونية الغربيين ، وقولهم بالطبيعتين ....

فى البدء بدت هذه الفكرة وكأنها مقبولة لدى بعض رؤساء الكنائس من الجانبين .... وممن قبلوها أثناسيوس بطريرك انطاكية (٦٢١ — ٦٢٩) م وهونوريوس الأول اسقف روما (٦٢٥ — ٦٣٨) ... على أن قبول هذه الصيغة لم يدم الا بين موارنة لبنان بينما قوبل هونوريوس بمقاومة عنيفة من أساقفة الغرب .

فى سنة ٦٣٨ طبع هرقل مرسومه الذى عرف باسم " اكتيسيس " Ecthesis وعزم على ارغام الجميع على قبول المونوثيليتية ... لكن المقاومة الكبرى لتلك العقيدة الجديدة كانت فى الاسكندرية ، حيث رفض الاقباط أى حل بيزنطى ابتداء من خلقيدونية الى الهنوتيكون والمونوثيليتية ... كان الخوف من الابتعاد عن عقيدة اثناسيوس وكيرلس عمود الدين ، فضلا عن شعور الاقباط بقوميتهم ، جعلهم أكثر الرافضين للحيدة عن التقاليد القديمة ، ليقابلوا السلطة الامبراطورية فى منتصف الطريق فى المسائل الخاصة بالايمان .

لكن مصر كانت ذات أهمية خاصة للامبراطورية ، اذ كانت تعتبر مخزن غلالها ٠ لهذا فقد رغب هرقل الاستسلام للنزعة الانفصالية الدينية والمدنية ٠ كان مصمما على فرض معتقده بأى وسيلة ٠ كانت الخطوة الاولى فى تنفيذ هذا المخطط هى تعيين سيروس Cyrus اسقف فاسيس Phasis فى القوقاز قرب البحر الاسود ، والذى كان ذا ميول نسطورية ويتمتع بذكاء وولاء ريائى للامبراطور - تعيينه بطريركا ملكانيا على الاسكندرية والحاكم الامبراطورى لاقليم مصر ، تحت شريطة أن يتمهر الاقباط لكى يقبلوا الايمان الخلقيدونى والمونوثيليتية بأى وسيلة ٠٠٠ وسيروس هذا هو المعروف فى المراجع العربية باسم المقوقس وكان وصوله الى الاسكندرية فى سنة ٦٣١ ٠ وبدأ فى تنفيذ خططه بلا أدنى شفقه ٠ وفى خلال عشر سنوات غدا من أكثر الطغاة المكروهين فى تاريخ مصر ٠٠٠ لقد استخدم الصليب وصولجان الحكم لسحق المقاومة الوطنية ٠

كان ذلك سببا فى انخفاض شعبية هرقل الى الحضيض ، بعد شهرته التى نالها نتيجة استرداد الصليب المقدس من الفرس ٠٠٠ لقد أزال سيروس بتصرفاته كل ولاء للقسطنطينية فقد أخذ يتعقب ويطارد أساقفة الاقباط والقوميين من الاقباط ٠ كان عليهم اما أن يقبلوا معتقده أو يفقدوا حياتهم ٠ ويذكر كتاب تاريخ البطاركة للانبا ساويرس اسقف الاشمونين فى القرن العاشر " انه لعظم البلاء والضيق والعذاب الذى انزله (المقوقس) بالارثوذكسيين لكى يدخلوا فى الامانة الخلقيدونية ، ضل جماعة منهم لا يحصى عددها ، قوم منهم بالعذاب ، وقوم بالهدايا والتشريف ، وقوم بالسؤال والخداع ٠ حتى أن قيروس اسقف نيقيوس وبقطر اسقف الفيوم ، وكثيرين مثلهم خالفوا الامانة الارثوذكسية ، لانهم لم يسمعوا وصية الأب المضبوط بنيامين ، ولم يختفوا كغيرهم ، فصادهم بصنارة ضلالته فضلوا بالمجمع الخلقيدونى الطمث " ٠

ومن فرط الضيق هرب البطريرك القبطى الارثوذكسى البابا بنيامين الاول ٣٨ (٦٢٢ — ٦٦٢) الى دير صغير بالصعيد ، واختفى خلال السنوات الاخيرة للحكم البيزنطى فى مصر وحتى الفتح العربى ٠٠٠ ومن الذين نالهم الشدائد واستشهدوا فى تلك الفترة مينا شقيق البابا بنيامين ٠ يقول تاريخ البطاركة " قبض على الطوباوى مينا شقيق الأب بنيامين البطريرك ، وعذبه عذابا شديدا ، وأمر بوضع مشاعل تحت جنبيه حتى خرج شحم كليتيه من جنبه وسال على الارض ٠ وقلع أضراسه وأسنانه باللكم لاعترافه بالامانة ٠ وأمر أن يملأ جوالق رملا ويجعل القديس مينا فيه ويغرق فى البحر ٠ " ٠

وقد خلفت زيارات المتوقس لمدن وقرى الدلتا والصعيد فزعا عظيما ٠٠٠ فالضرب بالسياط والسجن والقتل كانت مقرونة بمصادرة الممتلكات وأوانى الكنائس ٠ وحتى الاديرة لم تنج منه فقصدها ليصطاد مخالفيه فى الرأى والمعتقد ٠ ورهبان الاديرة اما

أنهم قاوموه مقاومة خاسرة ، واما انهم هربوا من أمامه . حتى المتوحدون والنساك قبض عليهم وعذبوا حتى الموت . ولدينا قصة الانبا صموئيل المعترف في دير القلمون بصحراء الفيوم كمثال لمقاومة الاقباط البطولية أمام ارهاب البيزنطيين ... لقد جروا الانبا صموئيل من منسكة بالسلاسل ، وحول عنقه طوق من حديد كأمر المرتين . اقتيد الى مدينة الفيوم حيث أهين وجلد وضرب على أسنانه ، وأخضع لكل أنواع العذابات الشيطانية وأمر الجنود بقتله . ولم ينقذه من أيديهم سوى سدول الليل ، الامر الذى مكن تلاميذه من سرقته وهو بين الحياة والموت ....

في تلك الفترة حل بالاقباط من الاذلال ما لاعهد لهم به من قبل في كل العصور . وتحملت الكنيسة القبطية الارثوذكسية عذابات المجدّفين على يد ذلك المستعمر الملكانى ..

والعجيب أنها استطاعت تحمل كل هذه الضيقات دون أن تليق لها قناة ، واستمرت حية شاهدة للايمان الحق والشجاعة البطولية . حقيقة أن بعض ابنائها ضعفوا واستسلموا للمستعمر لسبب أو لآخر ، لكن تلك كانت حالات فردية وليست جماعية . أما نتيجة كل ذلك فهى أن الاقباط حملوا لمضطهديهم من البيزنطيين ، ولكل ما هو بيزنطى كراهية عميقة . وقد عبّر الأقباط عن كل ذلك ، ليس فقط في العقيدة الارثوذكسية ، بل في اللغة القبطية والادب القبطى أيضا ، وفوق كل ذلك في الفن القبطى ... لقد اتسعت الهوة بين الكنيستين القبطية والبيزنطية ، ولم يعد ممكنا تخطيها . لقد ذهبت الخلافات الى ما وراء حدود المعقول . وكأن الموقف كان يمهد لتغيير كبير ، مهما يكن هذا التغيير لقد وقع الفتح العربى لمصر ... وكان ذلك ايذانا ببدء صفحة جديدة من تاريخ كنيسة الاسكندرية العريقة ، ذلك السجل الحافل بآلام الأقباط وثباتهم وبطولتهم وشجاعتهم وحبهم لالههم .

ومن الكواكب التى ظهرت في تلك الفترة وأنارت الكثيرين بضيائها للسلوك في عالم الروح والفضيلة الانبا بسنتاؤس اسقف قفط ، والانبا يوأنس اسقف البرلس ، والانبا دانيال قمص برية شيهيت ...

× • + • + • + • + • + ×

الاحتلال الفارسى لمصر
(٦١٧ — ٦٢٧)

لابد لنا قبل أن نتناول موضوع فتح العرب لمصر ، أن نذكر شيئا عن الاحتلال الفارسى لمصر الذى دام قرابة عشرة أعوام (٦١٧ — ٦٢٧) ، خربوا وهدموا الكثير من الكنائس والاديرة ٠٠

العداوة بين الفرس والروم قديمة وتقليدية ٠٠٠ كان كل فريق يتحين الفرصة ليقتطع من أملاك الاخر ولقد انتهز الفرس فرصة ضعف الدولة البيزنطية ، وبدأوا يغيرون على ممتلكاتها ٠ فبعد أن انتهى الفرس من فتح بلاد الشام ، اتجهوا الى مصر ، وكانت مطمع الغزاة منذ القدم ٠٠٠ سلك الجيش الفارسى فى مصر طريق الغزاة السابقين من أمثال قمبيز والاسكندر الاكبر ، والتى سلكتها جيوش العرب بعد ذلك سار الجيش من العريش بحذاء ساحل البحر المتوسط حتى الفرما ففتحت بدون عناء لكن الفرس خربوا الكثير من كنائسها وأديرتها وتقدموا الى ممفيس ثم بحذاء فرع رشيد الى مدينة نقيوس ومنها الى الاسكندرية ٠٠٠

كانت الاسكندرية مدينة محصنة جدا ٠ وقد فشل الفرس فى غزوة سابقة لمصر حوالى سنة ٠٠٠م أن يقتحموها على الرغم من استيلائهم على الدلتا لكن المدينة سقطت فى هذه المرة بسبب الخيانة كانت المدينة تموج باخلاط من جنسيات مختلفة ٠ الروم والسوريون واليهود الى جانب الأقباط الوطنين ٠ يضاف الى هؤلاء جميعا أعداد من طلاب العلم وبعض اللاجئين وفدوا اليها من بلاد عديدة ٠ ولم تكن هناك رابطة تربط هؤلاء جميعا ٠٠٠

ذكرت المراجع أن الخائن الذى سهل للفرس اقتحام مدينة الاسكندرية لم يكن من مواطنيها الاقباط ، لكنه كان طالب علم وفد من اقليم البحرين (شمال شرق بلاد العرب ويدعى بطرس ولا تعرف ديانته أكان مسيحيا أم يهوديا أو وثنيا ٠ وكما لا يعرف الدافع الذى دفع هذا الخائن الى خيانته سوى أن بلاده (البحرين) كانت تحت الحكم الفارسى وكان اهلها خليطا اكثرهم من الفرس واليهود ٠

ويذكر ساويرس بن المقفع كاتب تاريخ البطاركة أن الفرس مدو حصارهم للأسكندرية ٠ صبوا جام غضبهم على الاماكن المجاورة ، خاصة الأديرة ، ونهبوها ومثلوا برهباتها ٠٠٠ وكانت المنطقة المحيطة بالاسكندرية فى ذلك الوقت غاصة بالاديرة ٠ فقد قيل أن عددها

صبوا جام غضبهم على الاماكن المجاورة ، خاصة الأديرة ، ونهبوها ومثلوا برهبانها ••• وكانت المنطقة المحيطة بالاسكندرية فى ذلك الوقت غاصه بالأديرة • فقد قيل أن عددها بلغ ستمائة ديرا • لكن الرهبان الآمنين فى أديرتهم لم يأخذوا حذرهم من هؤلاء الاعداء لقد اقتحم الفرس بعض هذة الأديرة ، وقتلوا رهبانها بحد السيف ، ولم يستطع أن يهرب منهم أحد الا القدر اليسير • ونهبوا ما فى الأديرة من نفائس ، وهدموا الكنائس وتركوها خرابا • لكن يبدو أن هذا السطو والقتل والتخريب انصب على الأديرة المتاخمة مباشرة للاسكندرية •

بعد أن دخل الفرس الاسكندرية عنوة ، قتلوا الكثيرين من اهلها ، كما أخذوا البعض أسرى ارسلوهم الى بلاد فارس ••• ومن الذين نجوا من يد الفرس البابا اندرونيكوس (٦١٦ — ٦٢٣) ، بل قيل انهم أحسنوا معاملته ويذكر الانبا ساويرس فى حياة هذا البابا ، انه ان لم يصبه أذى على أيدى الفرس ، لكن المصائب التى شهدها تحل بأولاده الأقباط ، والخراب الذى حل بهم فى كل أرض مصر ، ملأقلبه حزنا وأسى حتى مضى عليه •• وجدير بالذكر انه بينما كانت الاسكندرية على وشك السقوط فى أيدى الفرس ، هرب نيكيتاس حاكم مصر البيزنطى ومعه يوحنا (الرحوم) البطريرك الملكانى فى سفينة متجهين الى القسطنطينية •

بعد فتح الاسكندرية سار الجيش الفارسى نحو الجنوب بحذاء النيل قاصدا صعيد مصر • وكانت معاملة القائد الفارسى للمواطنين الأقباط واحدة فى كل مكان " يحل الموت والخراب حيث حل " ويذكر الانبا ساويرس بن المقفع أنه لما بلغ الجيش مدينة نقيوس (بشاتى) ، وشى اليه عدو للأقباط ضد الرهبان الذين كانوا يعيشون فى مغاير الجبال مدعيا أن لديهم مالا كثيرا ••• وفى مناسبة دينية كان الرهبان مجتمعين كلهم فى مكان واحد • فما كان من القائد الا أن حاصر ذلك المكان اثناء الليل بجنوده • وفى الصباح اقتحموه وقتلوا كل من فيه من الرهبان

وقد وصل الفرس الى أقصى الجنوب فى صعيد مصر • وكانوا يشيعون الموت والدمار حيث يحلون ••• وبالجملة فقد ارتكب الفرس مصائب ومظالم كثيرة جدا ••• ولدينا

مخطوطة تحوى نبوءة للانبا شنودة رئيس المتوحدين عن غزو الفرس لمصر ، وما أحدثوه من خراب ودمار ، وقتل الاقباط وهدم للكنائس والاديرة (تنيح الانبا شنودة قبل الغزو الفارسى بنحو ١٦٠ سنة) ... كما ذكر كثير من فظائعهم فى الصعيد الاعلى فى مخطوطة تحوى سيرة الانبا بسنتاؤس أسقف قفط . وكلا المخطوطتين باللغة القبطية ... ولعل فيما أصاب القبط من أهوال على يد الفرس ما يدحض الادعاء بأنهم تعاطفوا معهم ...

لم يرسل هرقل جيشا لطرد الفرس من مصر ، لكنه قام بهجوم مركز وشديد فى سنة ٦٢٧م على اقليم ما بين النهرين ، فاضطر الفرس تلقائيا الى الانسحاب من مصر خشية قطع طرق الامداد التى تأتيهم من بلادهم ، وبذا يعزل جيشهم فى مصر نهائيا ...

الكنيسة القبطية فى ظل الحكم الاسلامى

حالة مصر قبيل الفتح العربى :

كانت مصر حتى الفتح العربى تسير على أساس النظام الذى وضعه لها جستنيان عسكريا واداريا ومدنيا ... لقد نظم هذا الامبراطور الجيش البيزنطى بمصر على أساس الغاء القيادة الموحدة خوفا من أن يقوم قائد جيش الاحتلال باعلان الثورة على الحكومة المركزية بالقسطنطينية والاستقلال بمصر . كما حطم جستنيان ايضا وحدة البلاد الادارية ، وقسم مصر الى خمس دوقيات (أقسام كبرى) يحكمها خمسة محافظين يعينهم الامبراطور بمعرفته ، ويكونون مسئولين أمامه مباشرة . كان هؤلاء المحافظون فى البداية من الاجانب ، ثم حل مكانهم وطنيون لهم ولاء دينى للقسطنطينية . وكان هؤلاء المحافظون يجمعون من السلطتين المدنية والعسكرية .... هذا ولم تكن هناك عمليا وحدة ادارية تربط بين كل هذه الاقسام نظرا لضعف سلطة الحاكم البيزنطى المقيم بالاسكندرية ...

وهكذا لم تعد مصر فى القرنين السادس والسابع الميلاديين ، اقليما بيزنطيا بالمعنى الصحيح فقد كانت السلطة البيزنطية عليها ضعيفة ... كانت العلاقة بين بيزنطة ومصر علاقة مادية خالصة

ـنى أن مصر تؤدى الجزية السنوية قمحا وغلالا وأموالا ترسل الى القسطنطينية ، ولا يعـنى بيزنطيون بغير ذلك ، وكانت الضرائب مصدر شكوى الفلاحين بالاضافة الى المظالم الكثيرة الـتى كانت تقع في جبايتها •

الفتـح العـربى :
===========

كان مجىء العرب الى مصر حدثا على جانب كبير من الاهمية ، ترتب عليه نتائج خطيرة فـى تشكيل تاريخ تلك المنطقة التى كانت ملتقى الشرق والغرب فى العالمين القديم والوسيط • مصر — التى كانت تعتبر مخزن غلال روما ، ومن بعدها بيزنطة — كانت معروفة للعرب قبل الاسـلام ••• ـد وفد الى صعيد مصر منذ أقدم العصور الكثير من التجار العرب عن طريق البحر الاحـمر ووديان الصحراء الشرقية •

وقد ذكر عن عمرو بن العاص الذى قاد الحملة الى مصر ، أنه كان يقود قوافل التجارة بـين بلاد العرب ووادى النيل • ويحتمل أن يكون قد زار الاسكندرية وشاهد فخامتها وثرائها •••• لذا لا نعجب اذا وجدنا عمرو بن العاص — بعد الحملة على بلاد الشام ومعركة اليرموك سنة ٦٣٦ وسقوط أورشليم (بيت المقدس) سنة ٦٣٨ — يلح على الخليفة عمر بن الخطاب بأن يأذن له فـى غزو مصر — أفخر الاقاليم البيزنطية ، التى كان على دراية بها • خاصة وأن الفرس الذين استطاعوا ـ مصر مرتين ، قد ـ قهرهم العرب فى موقعة القادسية سنة ٦٣٦ •••

وبينما كان الخليفة عمر فى بيت المقدس وافق — بعد تردد — أن يقوم عمرو بحملة على مصـر ولكن ما أن عاد الى المدينة حتى فكر فى تأجيل قيام هذة الحملة نتيجة بعض مخاوف اخذت تساوره •• لذا نجده ينفذ رسالة عاجلة الى قائده عمرو بن العاص قائد الحملة يأمره بالعودة ان وصلتـه ـ لته هذة قبل عبور الحدود المصرية ••• ويقال أن عمرو تباطأ فى فض الرسالة لمعرفة مضمـونهـا ـتى عبر الحدود المصرية ، لانه أحس مسبقا بمضمونها ••• وكان جيش عمرو يتكون من ٤٠٠٠ مقاتل

سلك عمرو بن العاص فى فتح مصر الطريق الذى سلكه معظم غزاة مصر ، وهو الطريق المـوازى ـاحل البحر المتوسط ••• وصل الى العريش ومنها الى الفرما (بلوزيوم — مدينة على البـحـر ـتى بورسعيد الحالية) ، وكانت تعتبر بوابة مصر فى الجهة الشمالية الشرقية والمنفذ الى دلتـا

ت مدينة حصينة بها كثير من الآثار القديمة وعديد من الكنائس والاديرة ... سقطت الفرما
ي العرب بعد حصار دام شهرا ، فهدموا أسوارها وحصونها . وكان ذلك أوائل سنة ٦٤٠ ..
بعد شهر آخر سقطت مدينة بلبيس في شرق الدلتا ... كانت معركة حامية خسر فيها البيزنطيون
حاميتها الف قتيل وثلاثة آلاف أسير ، كما قتل من العرب عدد ليس بالقليل ...

وما لبث العرب أن صاروا أمام حصن بابليون القائم عند رأس الدلتا يشرف على الوجهين البحرى
قبلى (بنى هذا الحصن الامبراطور تراجان وكان يعرف باسم قصر الشمع . ولاتزال بقايا هذا
حصن موجودة بمصر القديمة بجوار الكنيسة المعلقة) ... دام حصار العرب للحصن طويلا ،
وا أثناءها يخضعون بعض الاقاليم المتاخمة ... وسرعان ماوصل مددا عربيا بقيادة الزبير بن
عوام ... تمكن العرب من الاستيلاء على قرية أم دنين (تندونياس) شمالى حصن بابليون
مكانها حاليا منطقة الازبكية — وبالذات أولاد عنان حيث الجامع المقام باسم أولاد عنان وهدم
حل محله جامع الفتح الذى يطل على ميدان رمسيس فى قلب القاهرة) ... هذا بينما دحرت
قوة بيزنطة فى عين شمس الى الشمال من حصن بابليون ، وبلغت قوة أخرى مدينة منفيس (قرب
ينة البدرشين الحالية) ، وغزا العرب اقليم الفيوم — وقد تم كل ذلك فى غضون سنة ٦٤٠ .

ى ذلك الوقت عرض قيرس المسمى فى المراجع العربية المقوقس (وقد أثبت
مؤرخ المدقق الفريد بتلر فى كتابه فتح العرب لمصر وهو اكفأ من أرخ لهذا الحدث ، أن قيرس
مقوقس هما شخصية واحدة وأنه ليس قبطيا وطنيا) — وكان فى ذلك الوقت محاصرا داخل الحصن
ى التفاوض وتسليم الحصن . وكان ذلك فى يوم ٦ أبريل سنة ٦٤١ وكان يوافق يوم الجمعة العظيمة
... وقد استمر حصار العرب للحصن سبعة شهور ... كان عرض المقوقس تسليم الحصن على يد
ى أرسلهم الى عمرو . فكان رد عمرو " ليس بيننا وبينكم الا احدى خصال ثلاث : اما ان دخلتم
الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ماعلينا . وان أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون ،
القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم " ... رفض الروم الخضوع للعرب ، وصمموا على مواصلة
قتال . وكتب المقوقس بشروط العرب الى الامبراطور هرقل ، لكن هذا الاخير ارسل اليه والى
الروم يعنفهم على تخاذلهم ازاء العرب .. فى اثناء ذلك استطاع الزبير ابن العوام أن يصعد
اعلا الحصن بواسطة سلم . وكان قد اتفق مع الجنود العرب أن يكبروا جميعا بصوت واحد متى

صموا تكبيره ... حدث ذلك وسط سكون الليل فظن الروم أن العرب اقتحموا الحصن ، فحدث
هرج ومرج وهربوا وتقدم الزبير الى باب الحصن وفتحه ... طلب قائد حامية الحصن وكان من
الروم الصلح مع العرب ... على أن أهم ما يخص الاقباط فى شروط الهدنة :

(١) أن يدفع كل قبطى متمسك بدينه دينارين فى كل سنة بصفة جزية ، ويعفى الشيوخ ، والنساء والصبيان وغير القادرين .

(٢) الا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء ، وألا يتدخلوا فى شئون المسيحيين .

+ + +

وبعد أن تم فتح حصن بابليون ، سار عمرو الى الاسكندرية . وكان الروم قد استعدوا فيها لمعركة فاصلة مع العرب . بل لقد استعد هرقل لمباشرة هذه الحرب بنفسه ، لولا أن المنية عاجلته . فكان لموته أكبر الاثر فى اضعاف شوكة الروم ... حاصر عمرو الاسكندرية مدة أربعة عشر شهرا ، بعدها سلمت المدينة ... حدث هذا فى الوقت الذى كانت الامبراطورية البيزنطية تسودها النزاع والفتن الداخلية صراعا لاجل العرش بعد موت هرقل ... وتأزمت الظروف ، فلجأ البيزنطيون الى انهاء الحرب مع العرب المسلمين ، بعقد صلح حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية ... فذهب قيروس الى بابليون حيث طلب الصلح مع عمرو بن العاص . وبالفعل عقدت معاهدة ثانية تعرف باسم معاهدة الاسكندرية أو معاهدة بابليون الثانية ، وذلك لانعقادها فى بابليون تمييزا لها عن بابليون الاولى ... ومعاهدة الاسكندرية لا تختلف فى موادها من جهة ما يخص الاقباط عن معاهدة بابليون الاولى .. وبذا اعتبر الاقباط اهل ذمة .

وعقب معاهدة الاسكندرية ، امتد نفوذ العرب تدريجيا الى باقى أقاليم مصر . وبعد أن انتهى عمرو بن العاص من فتح مصر ، اتجه الى بنتابوليس (الخمس مدن الغربية) ، فسار عمرو اليها وفتحها وفرض عليها الجزية ... كما أرسل عمرو عبد الله بن سعد بن أبى سرح على رأس حملة الى بلاد النوبة حوالى سنة ٦٤٢ .

وكانت النوبة فى ذلك الحين مملكة قوية مستقلة ، فاستعصى غزوها على العرب . فكتب عمرو الى عبد الله بن سعد يأمره بالرجوع . لكن عبد الله بن سعد عاود غزو النوبة فى سنة ٦٥١ مدة ولايته على مصر فى خلافة عثمان بن عفان . واشتدت وطأة القتال بين الجانبين و وانتهت بعقد

معاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية .

عاود الروم محاولة استعادة الاسكندرية من يد العرب ، فأرسلوا اسطولا كبيرا لاجلاء العرب عن مصر اجلاءا تاما سنة ٦٤٥ . وبالفعل فقد تم استيلاء الجيش البيزنطى على الاسكندرية ، وزحفوا على بعض بلدان الوجه البحرى . وكان ذلك فى ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح وخلافة عثمان بن عفان ... ولما تحرج الموقف أرسل عثمان عمرو بن العاص ، الذى تمكن من استعادة الاسكندرية عنوة ، وقتل قائد جيش الروم ... وكان هذا آخر عهد للروم بمصر ، وبعدها استتبت أمور مصر للعرب .

أسباب انتصار العرب وفتح مصر :

ان انتصار العرب .. على قلة عددهم — على الروم الذين كانوا لهم الجيوش والحصون أمر يدعو للبحث وللدهشة فى آن معا ... كيف استطاع عمرو بن العاص بجيش قوامه أربعة آلاف جندى أن يغزو مصر .. كيف استسلمت له البلاد ؟ نستطيع أن نلخص الاسباب فيما يأتى تبعا لاهميتها

(١) المسألة الدينية المذهبية وقد عرضنا لها سابقا .. ورأينا كيف حاول أباطرة الدولة البيزنطية أن يخضعوا أقباط مصر لمعتقدهم . واستخدموا فى سبيل الوصول الى ذلك كل الوسائل من قمع واضطهاد . وقد تبع ذلك سقوط أعداد لاتحصى من القتلى والشهداء دفاعا عن معتقدهم القويم ، على مدى مائة وتسعين عاما هى الفترة من مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ الى الفتح العربى لمصر سنة ٦٤١ .

(٢) الحماس الدينى عند الجنود العرب المسلمين ، وهو عامل لايمكن اغفاله ... هذا الحافز الدينى نراه واضحا حتى من عهد نبى المسلمين ... فبعد أن سيطر على شبه الجزيرة العربية ، أراد ان يدخل فى عهود ومواثيق مع القبائل المسيحية . فكتب سنة ٦٣٠ م الى نصارى نجران (فى بلاد اليمن) يدعوهم الى ابرام ميثاق معهم ..

فأرسلت قبيلة نجران المسيحية وفدا ليفاوض محمد في الحصول على أحسن الشروط ، مع افهامه ان القبيلة لن تتنازل عن عقيدتها المسيحية مهما كان الثمن ... وفي اليوم التالي لوصول الوفد النجراني الى مكة ، قابلوا محمدا . وكان أول مافعله أن دعاهم الى اعتناق الاسلام وثمة حادثة اخرى تكشف لنا أهمية هذا الحافز الديني ... يذكر ابن خلدون انه عندما بويع عمر بن الخطاب خليفة على المسلمين ، وقف يخطب في الجامع حاثا المسلمين على فتح العراق ، وقال لهم " سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها " ... والامر واضح من شروط الصلح التي فرضها العرب المسلمون على اى شعب مغلوب : اما اعتناق الاسلام ، او الجزية ، او السيف .

(٣) العامل الاقتصادي ، وهو من العوامل الهامة التي كانت وراء غزوات العرب المسلمين ـ أرادوا وهم شعب فقير جدا ـ أن يتمتعوا بخيرات الامصار المفتوحة .

(٤) ضعف جيش الروم المدافع عن مصر ـ وكذا ضعف الارادة كما اشرنا اليه آنفا ، حينما تعرضنا لحالة مصر قبيل الفتح العربي .

موقف الاقباط من العرب الغزاة :

==================

نستطيع أن نؤكد أن موقف الاقباط من العرب الغزاة كان سلبيا . بمعنى أنهم لم يتعاونوا معهم ولم يقفوا ضدهم ... واذا كان الامر كذلك ، فمن الذي أرشد العرب في زحفهم في أرض مصر ؟؟ يرى الباحثون أن مرشدي العرب كانوا من اليهود ... يذكر ساويروس بن المقفع في تاريخ البطاركة أن الامبراطور هرقل رأى في منامه أن شعبا مختونا سيثور عليه ويهزمه ويملك الارض . فظن هرقل وحلة انهم اليهود . فأمر بتعميد جميع اليهود والسامريين في كل ولايات الامبراطورية .. هذا التصرف من جانب هرقل جعل اليهود يعرضون خدماتهم على العرب ، وقدموا لهم خدماتهم بكل ما يحتاجونه من معلومات ، وبذلوا لهم المساعدة في سوريا ومصر ... ويقول الفريد بتلر في كتابه عن فتح العرب لمصر " لم يكن يوجد قبطي واحد في ساحة القتال . ومن الخطأ الادعاء بأن الاقباط كانوا يستطيعون في ذلك الوقت أن يجتمعوا او يقاتلوا او يفاوضوا العرب " .

لم يستقبل الاقباط العرب كمحررين لبلادهم . فلقد كان الاقباط يجهلون كل شيء عن نواياهم

..ل سيرغمهم العرب على اعتناق دين جديد هو الاسلام ؟ • ونحن قد رأينا كيف أن الاقباط .. أمام الامبراطور البيزنطي والدولة ، وأبوا أن يقبلوا مجرد عقيدة جديدة في نطاق المسيحية .. هل يعقل انهم رحبوا بأمة جديدة تدين بدين جديد ، لو احسوا انهم سيرغموا على اعتناق الاسلام ، وما يتبع ذلك من متاعب ومظالم ؟؟ • يضاف الى ذلك أن العرب لم يحاولوا قط ان يطمئنوا .. شعب المصري على نواياهم ، اذ كانوا يجهلون اللغتين اليونانية والقبطية • ومع أنهم على عكس .. رس — قاتلوا بشيء من الرفق ، ولم يقوموا بأعمال تخريبية منظمة ، أو باراقة دماء كثيرة ، الا أنهم .. دوا في بعض الاحيان في اقتراف اعمال مشينة وحركات قمع دامية ، مما لم يساعدهم على كسب ثقة .. شعب وتعاطفهم معهم •

.. يذكر الاسقف يوحنا النيقوسي في تاريخه — وهو المصدر الوحيد المعاصر للفتح العربي — امثلة .. عمله العرب الغزاة ، فيقول أن "عمرا" أمر بالقاء القبض على القضاة الرومان ، وتكبيل ايديهم .. امهم بسلاسل حديدية واوتاد خشبية • واغتصب الاموال وضاعف الضرائب المفروضة على الفلاحين .. يضطرهم أن يحضروا علف الخيل • كما انه اقترف كثيرا من اعمال العنف" ... أما عن حماس .. ب الديني للاسلام فيقول "عندما كان المسلمون يدخلون المدن ، ومعهم الاقباط الذين ارتدوا .. المسيحية ، كانوا يستولون على أملاك المسيحيين الفارين ، ويسمون خدام المسيح أعداء الله"

.. وهكذا نستطيع القول أن الاقباط لم يرحبوا بالعرب ويستقبلونهم كمحررين ... ويقول ساويرس المقفع في تاريخه "من بعد أن ملك عمرو مصر بثلاث سنين ، ملك المسلمون مدينة الاسكندرية .. موا سورها واحرقو بيعا كثيرة بالنار ، وبيعة مارمرقس التي هي مبنية على البحر حيث كان جسده .. ط ... احرقوا هذا الموضع بالنار وما حوله من الديارات" •

وان كنا نذكر مظالم العرب الفاتحين ، فلابد — انصافا للحقيقة — أن نقول أن هذه المظالم .. عامة وشاملة خاصة في الفترة الاولى للفتح العربي • فقد اكتشف البروفسور جروهمان وثيقتين برديتين يرجع تاريخهما الى سنة ٢٢ هـ (= ٦٤٢م) • مكتوبتين .. نية وملحق بهما نص آخر باللغة العربية • والوثيقة الاولى عبارة عن ايصال حرره على نفسه امراء الجند ويدعى الامير عبد الله بأنه استلم خمسا وستين نعجة لاطعام الجند الذين معه حررها الشماس يوحنا مسجل العقود في اليوم الثلاثين من شهر برمودة من السنة المذكورة أولا •

وقد جاء بظهر الورقة مايلى " شهادة بتسليم النعاج للمحاربين ولغيرهم ممن قدموا البلاد . وهذا
ما عن جزية التوقيت الاول " ... أما الوثيقة الثانية فنصها " باسم الله . أنا الامير عبد الله
كتب اليكم يا امناء تجار مدينة بسوفتس ، وارجوان تبيعوا الى عمر بن أصلح لفرقة القوطة علفا بثلاث
دراهم ذهبية ، كل واحد منها " بحرورين " والى كل جندى غذاء من ثلاثة اصناف " ... ويعلق
الاستاذ جروهمان على الوثيقتين بقوله " ان هذه المعاملة ازاء شعب مغلوب قلما نراها من شعب
منتصر " .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) فى كتابه الفاروق عمر ج٢ ، بعد دراسة مستفيضة
لعصر الخلفاء الراشدين ، مستندا الى المصادر العربية " لا شك ان القبط لم يعاونوا الروم فى
قتال العرب ، الا بالقدر الذى يضطرهم اليه خضوعهم كارهين لسلطان قيصر وعماله . ولكن لا شك
كذلك فى أنهم لم يعاونوا العرب ، الا أن تكون معاونات فردية . اما فيما عدا ذلك ، فقد وقف
شعب مصر من الفريقين المتحاربين موقف المتفرج شديد التطلع " .

انه لايوجد نص واحد فى المصادر القديمة يشير الى أن الاقباط قدموا اية مساعدة لجيش عمرو
حتى وقت حصارهم لحصن بابليون — اى فى المرحلة الاولى للغزو العربى .

حريق مكتبة الاسكندرية :

ويتصل بموضوع فتح العرب لمصر ، اتهام القائد العربى عمرو بن العاص بحرق مكتبة الاسكندرية
الشهيرة بتصريح من الخليفة عمر بن الخطاب ... وتقول المصادر التى ذكرت ذلك ان عمرا ارسل
للخليفة يأخذ رأيه فكان رد عمر كالآتى " واما ما ذكرت من أمر الكتب فاذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء
فى كتاب الله (القرآن) فلا حاجة لنا به . واذا خالفه فلا ارب لنا فيه واحرقها " . فلما استلم
عمرو هذا الكتاب ، أمر بالكتب فوزعت على حمامات الاسكندرية العامة لتوقد بها ، فكانوا يوقدون
منها لمدة ستة أشهر . والحق ان هناك من يتحمس وينفى بشدة هذه القصة ويعتبرها مختلقة ولا
اساس لها من الصحة ....

كان اول من ذكر هذه القصة كتابة هو الرحالة الفارسى عبد اللطيف البغدادى الذى تخرج من
المدرسة النظامية ببغداد ، وجاء الى مصر حيث قضى عدة سنوات يدرس فى الازهر ، ثم ذهب الى
دمشق مع صلاح الدين الايوبى . ولما عاد الى بغداد مسقط رأسه كتب مذكرات عن رحلته فى كتاب

أسماه أخبار مصر (توفى سنة ١٢٣١ م) ، وابو الفرج بن العبرى (توفى سنة ١٢٨٦ م) فى كتابه "مختصر تاريخ الدول" — اى بعد الفتح العربى بنحو ستة قرون ... ويبدو مما ذكره عبد اللطيف البغدادى — وقد كتب كتابه حوالى سنة ١٢٠٠ م — أن قصة حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو كانت شائعة ومتداولة فى ايامه ... حتى انه قال "وهناك كانت تقوم المكتبة التى أحرقها عمرو بن العاص بأمر عمر" .. لكن احدا ممن كتبوا قبل ذلك ، لم يذكر هذا الخبر ... فمثلا يوحنا النقيوسى فى القرن السابع اغفل هذا الخبر . ويرى الفريق المعارض لقصة حريق عمرو للمكتبة أسبابا اخرى كثيرة لعدم تصديق هذه القصة لا داعى للخوض فى ذكرها ... وان كان موضوع حرق عمرو لمكتبة الاسكندرية ، لم يتمكن العلماء حتى الان البت فيه بصفة قاطعة ، لكن لا نستطيع أن نختم كلامنا عن هذه المكتبة دون أن نقول أن ثلاثة من المؤرخين الكنسيين القدامى وهم سوزومين وثيودوريت وروفينوس ذكروا أن المكتبة كانت لاتزال موجودة فى القرنين الرابع والخامس ... ويذكر كيرلس مقار بطريرك الاقباط الكاثوليك وكان رئيسا للمجمع العلمى المصرى بالانتداب فى بحث له عن سرابيوم الاسكندرية مستندا الى شهادات الاقدمين "ان مكتبة السرابيوم التى كانت فى القرن الرابع المكتبة العظمى بالاسكندرية لم تحرق بأمر يوليانوس (جوليان) سنة ٣٦٤ م ، ولا خربت بأمر ثاوفيلس الكبير سنة ٣٩١ م ، بل ظلت قائمة مع المكتبات الاخرى فى القرن الخامس وحتى آخر القرن السادس" . يضاف الى ذلك ان للعرب سابقة فى حرق جميع كتب الفرس بالقائها فى الماء والنار . هذه الحقيقة التى ذكرها بن خلدون فى مقدمته ... الامر الذى يرجح الرأى القائل بحرق تلك المكتبة العظيمة على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب .

عودة البابا بنيامين :

===============

كان البابا بنيامين البطريرك ٣٨ هاربا من قيرس (المقوقس) البطريرك الملكانى وبعد الهزيمة التى منى بها الروم ، ورحيل جيشهم عن مصر ، غدا القبطى فى مأمن من الخوف ، وبدأوا يشعرون بالحرية الدينية ... ولما علم عمرو باختفاء البابا القبطى بنيامين نتيجة الظروف التى كان يمر بها الاقباط ، كتب كتاب امان للبابا بنيامين يقول فيه "الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والامان والسلامة من الله فليحضر آمنا مطمئنا ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته" .. ويقال أن الذى سعى فى عودة البابا بنيامين كان احد الاقباط يدعى سنوتيوس (شنودة) وكان بين

قادة الجيش الرومانى . كما يقال أن عمرو فى طريق عودته بعد فتح الاسكندرية خرج للقائه رهبان وادى النطرون فلما رأى طاعتهم ، سلمهم كتاب الامان للبابا ...

ولم يلبث عهد الامان ان بلغ البابا بنيامين فخرج من مخبئه وعاد الى الاسكندرية ودخلها دخول الظافرين ، وفرح الناس برجوعه فرحا عظيما بعد ان ظل غائبا مدة ثلاثة عشر عاما ... منها عشرة اعوام قبل الفتح العربى ، وثلاثة اعوام فى حكم المسلمين . وكان البابا بنيامين فى هذة المدة يتنقل خفية ، غالبا بين الكنائس والاديرة الممتدة على طول وادى النيل ... وكان البابا بنيامين ذا هيئة جميلة تلوح عليها امارات الوقار والجلال . كما كان عذب المنطق فى تؤدة ورزانة .. وكان لكل ذلك اثر عظيم فى نفس عمرو بن العاص حينما ذهب اليه البابا والتقى به ، حتى انه قال لاصحابه " ان فى جميع الكور التى ملكناها الى الان مارأيت رجل الله يشبه هذا " . ثم التفت اليه عمرو وقال له " جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم . واذا انت صليت على حتى امضى الى المغرب والخمس مدن واملكها مثل مصر واعود اليك سالما بسرعة ، فعلت لك كل ما تطلبه منى " . فدعا له البابا بنيامين وقال له كلاما طيبا اعجبه والحاضرين ثم انصرف من عنده مكرما مبجلا .

وكان لرجوع البابا بنيامين الى مقر كرسيه وممارسة نشاطه الرعوى ثانية ان رجع كثيرون ممن انضموا الى الخلقيد ونيين بوسائل القمع والارهاب ... يقول ساويرس بن المقفع " لما جلس هذا الاب الروحانى بنيامين البطرك فى شعبه دفعة اخرى بنعمة المسيح ورحمته ، فرحت به كورة مصر كلها ، وجذب اليه اكثر الناس الذين اضلهم هرقل الملك المخالف . وكان يجذبهم للرجوع الى الامانة المستقيمة بسكينة ووعظ وملاطفة وتعزية . وكثير ممن هرب الى الغرب والخمس مدن خوفا من هرقل الملك المخالف ، لما سمعوا بظهور راعيهم ، عادوا اليه بفرح ونالوا اكليل الاعتراف . وكذلك الاساقفة الذين خالفوا أمانته دعاهم ان يعودوا الى الامانة الارثوذكسية . فمنهم من عاد بدموع غزيرة ، ومنهم من لم يعد حياء من الناس ان يشهر عندهم بأنه كان مخالفا للامانة فبقى على كفره الى ان مات " .

كل ذلك حدا بالمؤرخ بتلر ان يقول عن البطريرك بنيامين " ولقد كان لعودة بنيامين اثر عظيم فى حل عقدة مذهب القبط وتفريج كربته ، ان لم تكن عودته قد تداركت تلك الملة قبل الضياع والهلاك اذ لم يكن قبط مصر فى وقت من الاوقات اشد حاجة منهم فى ذلك الوقت الى ذى رأى حصيف وخلق متين يقودهم ويلى امرهم " .

وبعد ان نجح البابا بنيامين فى جمع القبط الارثوذكسيين ولم شعثهم ، اتجهت همته الى اصلاح ما تهدم من الاديرة ولاسيما ماكان منها فى وادى النطرون ، وقد لحقها من التخريب الكثير منذ اوائل القرن السابع على يد الفرس والخلقيدونيين ... ومن ذلك زيارته برية شيهيت وتكريسه لبيعة جديدة بدير القديس ابو مقار ، حيث رأى السيد المسيح يكرس الهيكل بنفسه ، كما ظهر ايضا القديس ابو مقار .

كم كان عدد القبط وقت الفتح العربى ؟

المؤرخون المسيحيون والمسلمون الاوائل ، ممن ارخوا للفتح العربى فى مصر فى شبه اجماع على ان عدد من فرضت عليهم الجزية دينارين بحسب معاهدتى بابليون والاسكندرية بلغوا ستة الاف الف (= ستة ملايين) . وذلك لان مقدار الجزية وحدها (بخلاف الضرائب الاخرى على الارض وخلافه كانت هى الخراج) ، التى جمعت منهم بلغت اثنى عشر الف الف دينار (= اثنى عشر مليونا) ... ومعلوم ان الجزية كانت تفرض على الذكور ممن تبلغ اعمارهم من ١٥ الى ٦٠ سنة ، ويعفى منها النساء والشيوخ والصبيان والمعوقين غير القادرين والرهبان ... واضح ان من كانت تنطبق عليهم شروط دفع الجزية كانوا حوالى $\frac{1}{4}$ سكان مصر من القبط على الاقل ... فاذا اضفنا الى هؤلاء الذين فرضت عليهم الجزية ، عدد من اعفوا منها من النساء والشيوخ والصبيان والمعوقين والرهبان واعدادهم الهائلة ، فكم كان يبلغ عدد سكان مصر من القبط فى ذلك الوقت ... نعتقد ان عددهم كان لا يمكن ان يقل عن خمسة وعشرين مليونا . هذا وان كان المؤرخ الانجليزى ستانلى لين بول يقول ان ابن عبد الحكم يقدر دافعى الجزية (ضريبة الرأس) من ستة الى ثمانية ملايين نسمة فاذا كان الامر كذلك فالعدد يرتفع الى نحو ثلاثين مليون قبطى . (ستانلى لينبول ، تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ١٩) .

الشريعة الاسلامية واهل الذمة :

كان العرب بحكم بيئتهم الاولى يجهلون فن الحكم ... والقرآن بتعليماته فيما يجب اتباعه حيال اهل الذمة ، جعل مهمة الحكام فى الاراضى المحتلة شيئا صعبا . فقد اضطر هؤلاء الحكام بحكم الظروف اما الى تجاهل بعض تعليمات القرآن والحديث ، واما الى تفسيرها حسب اهوائهم ...؛

وبعد ان نجح البابا بنيامين في جمع القبط الارثوذكسيين ولم شعثهم ، اتجهت همته الى اصلاح ما تهدم من الاديرة ولاسيما ماكان منها في وادى النطرون ، وقد لحقها من التخريب الكثير منذ اوائل القرن السابع على يد الفرس والخلقيدونيين ... ومن ذلك زيارته برية شيهيت وتكريسه لبيعة جديدة بدير القديس ابو مقار ، حيث رأى السيد المسيح يكرس الهيكل بنفسه ، كما ظهر ايضا القديس ابو مقار .

كم كان عدد القبط وقت الفتح العربى ؟

المؤرخون المسيحيون والمسلمون الاوائل ، ممن ارخوا للفتح العربى في مصر في شبه اجماع على ان عدد من فرضت عليهم الجزية دينارين بحسب معاهدتى بابليون والاسكندرية بلغوا ستة الاف الف (= ستة ملايين) . وذلك لان مقدار الجزية وحدها (بخلاف الضرائب الاخرى على الارض وخلافه كانت تسمى الخراج) ، التى جمعت منهم بلغت اثنى عشر الف الف دينار (= اثنى عشر مليونا) ... ومعلوم ان الجزية كانت تفرض على الذكور ممن تبلغ اعمارهم من ١٥ الى ٦٠ سنة ، ويعفى منها النساء والشيوخ والصبيان والمعوقين غير القادرين والرهبان ... واضح ان من كانت تنطبق عليهم شروط دفع الجزية كانوا حوالى $\frac{1}{4}$ سكان مصر من القبط على الاقل ... فاذا اضفنا الى هؤلاء الذين فرضت عليهم الجزية ، عدد من اعفوا منها من النساء والشيوخ والصبيان والمعوقين والرهبان باعدادهم الهائلة ، فكم كان يبلغ عدد سكان مصر من القبط في ذلك الوقت ... نعتقد ان عددهم كان لا يمكن ان يقل عن خمسة وعشرين مليونا . هذا وان كان المؤرخ الانجليزى ستانلى لين بول يقول ان ابن عبد الحكم يقدر دافعى الجزية (ضريبة الرأس) من ستة الى ثمانية ملايين نسمة فاذا كان الامر كذلك فالعدد يرتفع الى نحو ثلاثين مليون قبطى . (ستانلى لينبول ، تاريخ مصر في العصور الوسطى ص ١٩) .

الشريعة الاسلامية واهل الذمة :

كان العرب بحكم بيئتهم الاولى يجهلون فن الحكم ... والقرآن بتعليماته فيما يجب اتباعه حيال اهل الذمة ، جعل مهمة الحكام في الاراضى المحتلة شيئا صعبا . فقد اضطر هؤلاء الحكام بحكم الظروف اما الى تجاهل بعض تعليمات القرآن والحديث ، واما الى تفسيرها حسب اهوائهم ...؛

ابنه يزيد مع الحج استصحب يزيد معه طبيبه النصرانى أبا الحكم . كما أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان أحد المهندسين الروم المسيحيين الى مكة لعمل هندسى عقب أحد الفياضانات التى هددت الكعبة . وأرسل الوليد بن عبد الملك بن مروان ثمانين صانعا من الروم والقبط لاعادة مسجد محمد ... كما اشترك كثير من العمال الذميين فى بناء المساجد " . (أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٠٣ ، ٢٠٤) .

أهل الذمة وعهد عمر :

خضع أهل الذمة ايضا لشروط عمر التى تعرف باسم عهد عمر . ذكرها القلقشندى (١٣٥٥ — ١٤١٨) فى كتابه " صبح الاعشى " ... ونحن نذكرها هنا لان بعض ولاة مصر المسلمين رجعوا اليها احيانا . هذه الشروط المنسوبة لعمر بن الخطاب وضعت أولا فى صورة خطاب حرره أهل سوريا ، ورفعوه للخليفة عمر ليصدق عليه ... وهذا هو نص الخطاب كما اورده القلقشندى :

" هذا كتاب لعبد الله عمر امير المؤمنين من نصارى مدينة ...

" انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا . وشرطنا لكم على أنفسنا أن لانحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها قلاية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ماخرب منها ، ديرا ولاكنيسة ... ولا نمنع كنائسنا ان ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نأوى فى منازلنا ولاكنائسنا جاسوسا . ولا نكتم غشا للمسلمين . ولا نعلم أولادنا القرآن . ولا نظهر شركا ولا ندعو اليه احدا . ولا نمنع من ذوى قرابتنا الدخول فى الاسلام ان ارادوه . وان نوقر المسلمين ونقوم لهم فى مجالسنا اذا ارادوا الجلوس . ولا نتشبه بهم فى شىء من لباسهم ، فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر . ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكنيتهم ، ولا نركب السروج . ولا نتقلد السيوف . ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا . ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمور . وان نجز مقادم رؤوسنا وان نلزم ديننا حيث ما كنا . وان نشد زنانير على اوساطنا وان لانظهر الصليب على كنائسنا ، ولا فى شىء من طرق المسلمين واسواقهم . ولا نضرب بنواقيسنا فى كنائسنا الا ضربا خفيفا . ولا نرفع اصواتنا بالقراءة فى كنائسنا ولا فى شىء من حضرة المسلمين . ولا شمانين ولا نرفع مع موتانا ولا نظهر النيران معهم فى شىء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نجاورهم بموتانا . ولا نتخذ من الرقيق ما يجرى عليه سهام المسلمين ، ولا نطلع عليهم فى منازلهم " .

" قال عبد الرحمن بن غنم : فلما أتيت عمر بالكتاب زاد عليه : ولا نضرب احدا من المسلمين • شرطنا ذلك على انفسنا واهل ملتنا ، وقبلنا عليه الامان • فان نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم وضمناه على انفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل لاهل المعاندة والشقاق " •

وقام القلقشندى بعد ذلك بتلخيص الشروط المفروضة على اهل الذمة وهى :
الجزية والضيافة ، والانقياد لاحكامنا ، وان لايركبوا الحمير بأن يجعل الراكب رجليه من جانب واحد • وان ينزلوا المسلمون صدر المجلس وصدر الطريق • والتميز عن المسلمين فى اللباس وانهم لا يرفعون ما يبنونه على جيرانهم من المسلمين • وانهم لايحدثون كنيسة ولا بيعة فيما احدثه المسلمون من البلاد •

ان موضوع عهد عمر محل نقاش من جهة صحة نسبته اليه ••• لكن الامر الذى لايمكن انكاره او تجاهله هو ان بعض الخلفاء والولاة وفقهاء المسلمين ساروا على نفس الخط الواضح نحو الذميين فى عهد عمر طوال الحكم الاسلامى ••••

ومن جهة مصر ، فان عمرو بن العاص كان فى بادىء الامر ، قد صالح اقباط مصر على مبدأ الجزية الذى اشرنا اليه • لكن المؤرخ المقريزى يذكر ان عمر بن الخطاب مالبث ان كتب لواليه على مصر عمرو بن العاص " ان اختم فى رقاب اهل الذمة بالرصاص ، وليظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم ، ويركبوا على الاكف عرضا ، ولا تضرب الجزية الا على من جرت عليه الموسى دون النساء والولدان • ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم " •

الاقبــــاط والنظـــام المـالـى :

اهتمت الخلافة الاسلامية عقب فتح مصر مباشرة باستغلالها وجباية أموالها • وتشهد المكاتبات التى دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص عقب فتح مصر على أن الخليفة كان يريد جباية نفس القدر الذى كان يجبيه الروم من مصر (ابن الحكم : فتوح مصر واخبارها) •••• ••

وينسب لعمرو بن العاص انه قال لاقباط مصر بعد الفتح " ان من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته " ، ويذكر ابن الحكم ان عمرو قتل احد اثرياء الصعيد يدعى بطرس ، فكان ذلك سببا فى

ان يخفى الاقباط كنوزهم خوفا من القتل .

هل كان هذا نوعا من الاغتصاب من جانب عمرو بن العاص لصالحه ، أم كان ذلك لتقدير الجزية أم للاسهام فى نفقات الدولة ... الخ . كل هذا يعسر علينا استخلاصه من المصادر التى بين ايدينا ... لكن ما هو واضح ان الاقباط سرعان ما عادوا الى المعاناة من كثرة ما فرض عليهم من ضرائب ، تماما كما كانوا فى زمن الروم ، اذ ان الاعباء المالية التى تطلبتها الخلافة كانت كثيرة ، واصبح مطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت مال المسلمين وللمنتفعين من الولاة والموظفين (دكتورة سيدة كاشف ، مصر فى عصر الولاة ص ١٢٢ ، ١٢٣) . وتقول دكتورة سيدة كاشف " يظهر ان العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية ، ولذا كانت الجزية سببا فى اسلام كثير من الاقباط الذين ارادوا التخلص منها . وهذا طبعا معناه نقص فى دخل الدولة . وربما حدا هذا بالخلفاء الى مضاعفة مقدار الجزية على من تبقى من الاقباط على دينه ، حتى لقد قيل ان الخليفة عمر بن عبد العزيز ارسل الى حيان بن شريح عامله على خراج مصر ، ان يجعل جزية موتى القبط على احيائهم ... والملاحظ ان الاعباء المالية اخذت تزداد تدريجيا على الاقباط مما اضطر الكثيرين الى التحول الى الدين الاسلامى فرارا منها . وعندما كثر عدد الاقباط الذين دخلوا فى الاسلام ، كثر العبء المالى على من بقى على دينه منهم ... كذلك بدأ والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) سنة فرض الجزية على الرهبان ، اذ امر باحصاء جميع الرهبان فى كل الكور ، وفى وادى النطرون وسائر الاماكن ، وفرض دينارا جزية على كل راهب . وامر الا يترهب احد بعد من احصاه . وكانت هذه اول جزية اخذت من الرهبان ... وفى خلافة الوليد بن عبد الملك واثناء ولاية اخيه عبد الله بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧٠٩) زادت الاعباء المالية على الاقباط ، وقد اسلم عدد منهم . لكن من ناحية اخرى قامت فى عهده حركة مقاومة سلبية ضد سياسة العرب المالية من جانب الذين لم يرضوا بتغيير دينهم بسبب الاعباء المالية . فأخذ بعض الافراد يهربون الى مناطق مختلفة غير تلك التى كانوا مقيدين فيها ... غير ان هذا الوالى تشدد فى قمع تلك الحركة التى كانت تهدد باثارة الفوضى فى مصر فضلا عن تأثيرها فى مالية الدولة ، فأمر بوسم الغرباء الذين وجدوا فى الاقاليم المختلفة على ايديهم وجباههم وارسلهم الى مواضع مختلفة . وقد استمرت حركة الهروب فى ولاية قرة بن شريك الذى خلف عبد الله بن عبد الملك (٧٠٩ ـ ٧١٤) ، بل انها اتخذت فى عهده شكلا واسعا فكانت اسرات باسرها رجالا ونساء واطفالا تهرب من مكان الى مكان

لا تستقر فى مكان معين وذلك فرارا من دفع الضرائب ... وفى خلافة سليمان بن عبد الملك (٧١٥ ـ ٧١٧) ، كان متولى خراج مصر اسامة بن زيد التنوخى . وقد اشتد اسامة فى طلب الخراج والجزية وامر عماله الا يتوانوا فى جمع الضرائب بأسلم الكثيرون فى عهده كى يتخلصوا من الاعباء المالية . ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الاقباط الذين اثقلتهم الاعباء المالية . وقد امر اسامة الا يأوى احد غريبا فى الكنائس او الفنادق او السواحل ... وقد عمل اسامة بن زيد احصاء ثانيا للرهبان بعد الاحصاء الذى تم فى عهد عبد العزيز بن مروان ، وجبى منهم الجزية كما امر الرهبان الا يقبلوا فى الرهبنة من يأتى اليهم بعد ذلك . وامر اسامة بوسم كل راهب بحلقة حديد فى يده اليسرى كان يكتب عليها اسم بيعته وديره وتاريخه . اما من وجد هاربا او غير موسوم فقد كان يلقى عقابا قاسيا " (دكتورة سيدة كاشف ١٢٣ ـ ١٢٨) .

وبسبب الحاجة الى المال كان بعض الخلفاء والولاة يستمرون على جمع الجزية حتى ممن يسلمون ولا شك ان معظم الذين اعتنقوا الاسلام من الاقباط كان بسبب التهرب من دفع الجزية وليس حبا فى الاسلام كدين . حدث فى ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر سنة ٧٤٥م من قبل الخليفة مروان بن محمد ، عندما اعلن اعفاء كل من يسلم من الجزية ، اعتنق نحو اربعة وعشرين الفا من الاقباط الدين الاسلامى . كذلك عندما قرر الخليفة العباسى ابو العباس السفاح ان يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الاسلامى ويقيم شعائره ، تخلى كثير من المسيحيين عن دينهم واعتنقوا الدين الاسلامى بسبب فداحة الجزية والاعباء الملقاة عليهم (سيدة كاشف ١٢٩) .

أهل الذمة ووظائف الدولة :

لم يشمل عهد عمر مسألة استخدام أهل الذمة ، لان القرآن اجاب على ذلك بالنفى . وقد تمسك عمر طوال مدة خلافته بأحكام القرآن ... وقد اورد لنا الفقيه بن النقاش خطيب مسجد بن طولون فى القرن التاسع الميلادى عدة امثلة لما اتبعه الخليفة عمر :

" قال ابو موسى الاشعرى للخليفة : استخدمت رجلا نصرانيا . فأجابه الخليفة : ماذا فعلت ايها الرجل ؟ ان الله سيعاقبك . الم تدرك معنى قول الله تعالى : " يأيها الذين "امنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم " ان الله لايهدى القوم الظالمين (المائدة : ٥٠) . فقلت يا امير المؤمنين ، استخدمته " وتركت جانبا عقيدته . فأجابه عمر : ليس هذا عذرا ، ولن اشرف ابدا الذين احتقرهم الله .

" ولن ارفع ابدا الذين وضعهم الله فى حالة دنيئة • ولن اقترب من الذين ابعدهم الله منه "

" وكتب الى الخليفة عمر احد قواده ليستعلم بخصوص ادخال الكفار فى الوظائف العامة فقال :

" ان الاموال التى تدفقت على الخزينة بكثرة ، ولا يستطيع غيرهم ان يقوم بالاعمال الحسابية "

قل لى حينئذ ما يستحسن عمله " ••• فأجابه عمر " لاتشركوا الكفار فى اعمالكم • لاتعطوهم

" ما حرمه الله عليهم • ولا تضعوا ثروتكم فى أيديهم • ولا تنسوا هذه المبادىء التى يجب

" ان يسير عليها كل رجل " •

" وكتب الخليفة الى احد قواده : ان الذى يستخدم كاتبا نصرانيا ، يجب الا يشاطره فى

" او يكن له عاطفة او يجلسه بجانبه او يستشيره ، لان النبى والخليفة امرا بالا يستخدم الذميين

" فى الوظائف " •

وتلقى الخليفة عمر رسالة من معاوية بن ابى سفيان يقول فيها " يا امير المؤمنين انى استخدم فى ولايتى نصرانيا لا استطيع بدونه ان اجمع الخراج • ولكن اردت قبل ان يقوم بهذا العمل ان انتظر اوامركم " فأجاب الخليفة " ادعو الله ان يقينى هذا الشر ، قرأت الرسالة التى وجهتها الى بخصوص النصرانى • واعلم ان هذا النصرانى قد توفى والسلام " •

اما رأى الفقيه النقاش ، فلم يكن اقل صراحة من رأى عمر رغم الفاصل الزمنى بينهما (نحو ٢٣٠ سنة) فقد سئل الفقيه " ماهو رأى علماء الاسلام ، وهم قادة الشعوب ، فيما يختص باستخدام الذميين والاستعانة بهم بصفة كتاب لدى الامراء ، لادارة البلاد او لجباية الخراج ؟ اهو عمل شرعى ام محرم فأجاب ابن النقاش : " اعلم ان الشرع لايسمح باستخدام الذميين • وهذا رأى جميع المسلمين • اما العلماء ، فقد افتوا بعدم استخدام الذميين ، فحرموه بتاتا او اعربوا على الاقل عن عدم رضائهم لانهم يقولون : لاعهد بيننا وبين النبى • ويمكن تطبيق هذا الكلام على اقباط مصر الذين يعتقدون انهم غير مرتبطين بعهد مع المسلمين ••• فان قيل ان الآيات التى ذكرتها تتعلق فقط بشعور الصداقة نحو النصارى ، بينما ان المسألة تتعلق باستخدامهم فى الوظائف العامة ، اقول : لا يستخدم الانسان الا من يثق فيه ••• وعلى اى حال ، فان الله تعالى حل المشكلة الخاصة بالذميين حلا قاطعا اذ قال " ومن يتولهم منكم فانه منهم " •

وقد كره عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموى ان تكون يد الذمى هى العليا فيكون له السلطان على المسلمين ، وحاول منع ذلك ... فأرسل الى الولاة عن هذا الخصوص رسالة يقول فيها "اما بعد ، فان الله عز وجل اكرم بالاسلام اهله ، وشرفهم واعزهم ، وضرب الذلة والصغار على من خالفهم . وجعلهم خير امة اخرجت للناس . فلا تولين امور المسلمين احدا من اهل الذمة ، فتبسط ايديهم والسنتهم ، وتذلهم بعد ان اعزهم الله ، وتهينهم بعد ان اكرمهم الله تعالى وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم" ... لذلك فقد عزل عمر بن عبد العزيز جماعة من العمال القبط بمصر ، واستبدل بهم عمالا مسلمين . والواقع انه كان شديد التمسك بتطبيق ذلك المبدأ فى جميع نواحى الدولة الاسلامية لانه كتب ذات مرة يقول " ان من اراد ان يقيم فى مملكته وبلاده فليكن على دين محمد مثله ، ومن لايريد فليخرج عنها " . (الكندى : كتاب الولاة والقضاة ، ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، الكامل فى التاريخ لابن الاثير ، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ص ٣٢٦) .

أهل الذمة وقيود الزى :

عرض عمر لهذه القيود بصفة عامة ، ثم جاء الفقهاء ليفسروا ماقاله عمر . يقول ابو يوسف قاضى بغداد فى " كتاب الخراج " عن القيود المفروضة على أزياء اهل الذمة " ينبغى ان تختم رقابهم فى وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم . ثم تكسر الخواتيم كما فعل بهم عثمان بن حنيف ان سألوا كسرها . وان يتقدم فى ان لايترك احد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا فى مركبه ، ولا فى هيئته . ويؤخذوا بأن يجعلوا فى اوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده فى وسطه كل واحد منهم . وبأن تكون قلانسهم مضربة ، وان يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب . وبأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية . ولا يحذوا على حذو المسلمين . وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ويمنعوا من ان يحدثوا بناء بيعة لهم او كنيسة ... فمر عمالك ان يتخذوا اهل الذمة بهذا الزى . هكذا كان عمر بن الخطاب ... امر عماله ان يأخذوا اهل الذمة بهذا الزى وقال حتى يعرف زيهم من زى المسلمين " .

أهل الذمة ودية من يقتل منهم :

هناك تضارب كبير بين الفقهاء فى هذا الامر ... يقال ان كلا من محمد وعمر بن الخطاب اباح

دم المسلمين الذين يقتلون النصارى اغتيالا . والمأثور عن محمد انه اشار الى ان من قتل ذميا فلن يشم رائحة الجنة ... لكن على بن ابى طالب قال " لايقتل مؤمن بكافر " . وقد دعاه الى هذا القول وجود فكرة ضد قتل المسلم لقتله ذميا .

ويقال ان كلا من ابى بكر وعمر وعثمان طالب بدية كاملة غير منقوصة كما فى حالة المسلم تماما . ولكن مالك بن أنس يقول بأن دية الذمى نصف دية المسلم سواء كان القتل عمدا أو خطأ ... يرى الامام الشافعى ان دية الذمى ثلث دية المسلم فى العمد والخطأ ... وقيل ان دية الذمى المقتول زمن محمد كانت نصف دية المسلم ...

واذا قتل رجل من المسلمين فى أرض اهل الذمة التزم اهلها الذميون بديته اذا لم يعرف قاتلوه أو لم يستطع القبض عليهم (اهل الذمة فى الاسلام ص ٢٠٧ ـ ٢١٠) .

الاسلام والمرتد :

الفقهاء المسلمون متفقون على ان الموت هو جزاء الردة عن الاسلام ، وهم فى ذلك متمسكون بالحديث القائل يقتل من بدل دينه ... ويصر البعض على قتل المرتد مهما كانت الظروف التى دعت الى ردته ، على حين يرى البعض الآخر ان يستتاب . فان استتاب ولم يصر على ردته فلا يجوز قتله ... وطبعا هذا الكلام ينطبق على الذمى الذى يعتنق الاسلام تحت اى ظروف وبعدها احس بخطأه واراد العودة الى دينه . وان كان الفقهاء متفقون على قتل المرتد ، لكنهم مختلفون فى المدة التى ينفذ بعدها الحد ... فمنهم من يقول يجب قتل المرتد فى الحال ، والبعض يرون ان يمهل ثلاثة ايام للاستتابة ، فان تاب قبلت توبته ... سئل عمر بن الخطاب رأيه فى رجل مسلم ثم ارتد ثم اراد العودة هل يقبل اسلامه ، قال " اقبلوه منه ، وقدموا له الاسلام فان قبله اتركوه وان لم يقبله فاقطعوا رقبته " ... واخذ رأى عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموى فى امر يهودى اسلم ثم ارتد فقال " ادعه الى الاسلام فان اسلم اخلوا سبيله ، وان ابى اقتلوه " (اهل الذمة فى الاسلام ص ٢١١ ـ ٢١٦) .

الاسلام وشهادة الذمى :

يكاد يكون هناك اجماع بين فقهاء المسلمين بعدم جواز شهادة ذمى لمسلم لا فى سفر ولا فى حضر ويقال ان عمر بن عبد العزيز كان اول من اخذ بهذا الرأى . وبعض المصادر تظهر مدى التزمت فى

دم المسلمين الذين يقتلون النصارى اغتيالا . والمأثور عن محمد انه اشار الى ان من قتل ذميا فلن يشم رائحة الجنة ... لكن على بن ابى طالب قال " لايقتل مؤمن بكافر " . وقد دعاه الى هذا القول وجود فكرة ضد قتل المسلم لقتله ذميا .

ويقال ان كلا من ابى بكر وعمر وعثمان طالب بدية كاملة غير منقوصة كما فى حالة المسلم تماما . ولكن مالك بن أنس يقول بأن دية الذمى نصف دية المسلم سواء كان القتل عمدا أو خطأ ... يرى الامام الشافعى ان دية الذمى ثلث دية المسلم فى العمد والخطأ ... وقيل ان دية الذمى المقتول زمن محمد كانت نصف دية المسلم ...

واذا قتل رجل من المسلمين فى أرض اهل الذمة التزم اهلها الذميون بديته اذا لم يعرف قاتلوه أو لم يستطع القبض عليهم (اهل الذمة فى الاسلام ص ٢٠٧ — ٢١٠) .

الاسلام والمرتد :

الفقهاء المسلمون متفقون على ان الموت هو جزاء الردة عن الاسلام ، وهم فى ذلك متمسكون بالحديث القائل يقتل من بدل دينه ... ويصر البعض على قتل المرتد مهما كانت الظروف التى دعت الى ردته ، على حين يرى البعض الآخر ان يستتاب . فان استتاب ولم يصر على ردته فلا يجوز قتله ... وطبعا هذا الكلام ينطبق على الذمى الذى يعتنق الاسلام تحت اى ظروف وبعدها احس بخطأه واراد العودة الى دينه . وان كان الفقهاء متفقون على قتل المرتد ، لكنهم مختلفون فى المدة التى ينفذ بعدها الحد ... فمنهم من يقول يجب قتل المرتد فى الحال ، والبعض يرون ان يمهل ثلاثة ايام للاستتابة ، فان تاب قبلت توبته ... سئل عمر بن الخطاب رأيه فى رجل اسلم ثم ارتد ثم اراد العودة هل يقبل اسلامه ، قال " اقبلوه منه ، وقدموا له الاسلام فان قبله اتركوه وان لم يقبله فاقطعوا رقبته " ... واخذ رأى عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموى فى امر يهودى اسلم ثم ارتد فقال " ادعه الى الاسلام فان اسلم اخلوا سبيله ، وان ابى اقتلوه " (اهل الذمة فى الاسلام ص ٢١١ — ٢١٦) .

الاسلام وشهادة الذمى :

يكاد يكون هناك اجماع بين فقهاء المسلمين بعدم جواز شهادة ذمى لمسلم لا فى سفر ولا فى حضر ويقال ان عمر بن عبد العزيز كان اول من اخذ بهذا الرأى . وبعض المصادر تظهر مدى التزمت فى

هى سياسة ومظالم لاعلاقة لها بالاسلام ٠

فالشائع مثلا ان الجزية هى ضريبة يدفعها اهل الذمة والكتاب ، غير المسلمين ، الذين يعيشون فى ديار الاسلام ، وان سبب وجوبها عليهم هو عدم تدينهم بشريعة الاسلام ، وهذا هو رأى علماء المذهب المالكى الذين قالوا ان الجزية قد وجبت على اهل الكتاب " بدلا عن القتل بسبب الكفر " ٠٠ فكأن اختلاف الشريعة هو سبب وجوبها ، ومن ثم فهى دائمة الوجوب ومستحقة الدفع طالما بقى هذا الاختلاف ٠٠٠

لكن هذا الشائع ليس هو الصحيح ٠٠ اذ لو كان سبب الجزية هو الاختلاف فى الدين لوجبت على كل المخالفين ، بينما امرها ليس كذلك فهى لاتجب الا على القادرين على القتال من الرجال ولا تجب على الشيوخ ولا النساء ولا العجزة ولا المرضى من اهل الكتاب ٠ وهؤلاء جميعا مخالفون للمسلمين فى الشريعة (الدين) ، ومع ذلك لاتجب عليهم الجزية ٠٠٠ كما انها لا تجب على الرهبان ، وهم من هم مخالفة فى الدين ٠ فليس الخلاف فى الدين هو سبب وجوبها ، وانما هى " ضريبة جندية " أو بدل الخدمة العسكرية " بتعبيرنا الحديث " ، فرضتها الدولة الاسلامية على القادرين على حمل السلاح والقتال ، ممن هم فى سن الجندية وطور القدرة عليها ، فى نظير اعفائهم من هذه الجزية لاعتبارات " امن " اقتضتها ظروف خاصة ببعض المجتمعات التى فتحتها جيوش المسلمين ، عندما اقتضت اعتبارات الامن هذه ، ان يكون الجيش جميعه فى تلك البلاد مولفا من العرب المسلمين ٠ ويشهد لذلك ما قاله غير المالكة من الفقهاء ، من انها وجبت على " بدلا " عن النصر والجهاد ١٠٠

فلم تكن الجزية اذا ضريبة دينية ، علة وجوبها هى المخالفة فى الدين ، بل كانت بدلا من الجندية عندما اقتضت ضرورات الامن قصر الجندية على المسلمين ٠ فلما زالت هذه الضرورة ، وكلما تخلفت سقطت هذه الضريبة ، وقامت المساواة الحقة والحقيقية بين المواطنين على اختلاف الشرائع والمذاهب والاديان ٠٠٠ واليوم وبعد التطور الذى بلغته الامة ، والذى ساوى بين ابنائها جميعا فى شرف الجندية ، وتأدية ضريبة الدم والذود عن الوطن ، هل هناك مبرر لبقايا فكر او حديث — مجرد فكر او حديث — عن هذه الجزية تظل معششة فى عقول متخلفة ، ظانة او زاعمة ان سقوط هذه الضريبة هو تعطيل لحكم من احكام الله ؟؟ ٠

(ثانيا) الزى الخاص :

ولقد ترسبت فى قناعة العامة ، وقطاع من الخاصة ، ان الاسلام قد دعا الى تمييز اهل الكتاب عن المسلمين بزى خاص . وعلى الرغم من ان الاسلام — وخاصة فى قرآنه الكريم — لم يعرض لقضية الازياء والاشكال لا بالنسبة للمسلمين ولا بالنسبة لغيرهم ، لاهتمامه بالجوهر والمقاصد اكثر من الظواهر والاشكال ، الا ان ما شهده تاريخنا وسجله حول زى اهل الكتاب واهل الذمة من مراسيم قد صدرت تحدد لهم التزى بزى خاص ، ثم تعطل تنفيذ هذا بالرشوة او الجاه او مرور الزمن ، ثم العودة اليها ثانيا .... وهكذا ان ما شهده التاريخ فى هذا المجال قد رسب فى القناعات والافكار ان هذا الامر هو دين ، او على الاقل وثيق بالدين ... ولقد اسهم فى هذا الخلط ، خلط السياسة واوامرها بالدين وشريعته .

ان ائمة وفقهاء اجلاء قد تحدثوا عن وجوب تمييز أهل الذمة بزى خاص ، ورووا ان فقهاء اجلاء قد التزموا ذلك فى مجتمعاتهم التى حكموها ... وعلى سبيل المثال فها هو القاضى ابو يوسف (١١٣ — ١٨٢هـ = ٧٣١ — ٧٩٨م) يكتب فى كتاب الخراج طالبا من الخليفة هارون الرشيد الالتزام بذلك مع اهل الكتاب والذمة " فلا يترك احد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا مركبه ولا فى هيئته ...الخ .

وقد استند ابو يوسف فى تقرير ذلك الى ان عمر بن الخطاب قد امر به وانه " امر عماله بأن يأخذوا اهل الذمة بهذا الزى ، وقال : حتى يفرق بين زى اهل الكتاب من زى المسلمين " ... ونحن لانجادل صدق رواية ابى يوسف ان عمر بن الخطاب ، قد طلب ان يتميز زى اهل الكتاب عن زى المسلمين . وان كانت لنا ملاحظات على القضية برمتها ، نوجزها فى نقاط :

(١) ان صنيع عمر بن الخطاب فى هذا المقام — وكذلك غيره من الخلفاء — ليس دينا ولا شريعة فمثل هذة الامور ليست من الدين فى شئ ؟

(٢) ان خيال الحكام قد تلقف مبدأ التمييز فى الزى فأضاف فى تطبيقه ، التفاصيل ، حتى ليخيل للمرء ان الذين شرعوا هذا الامر وطبقوه هم من مصممى الازياء .. وذلك يجعل هذا الامر ادخل فى عادات الحكام التى نسجتها ظروف عصورهم ، وابعد عن ان تكون ذات صلة بالشريعة والدين .

(٣) وهو اهمها — ان الفقهاء الذين استمروا على مر القرون ، يعيدون هذه القضية ويزيدون لم يتفوا وقفة المتأمل للحكمة التى من اجلها بدأ عمر بن الخطاب فوضع هذا القانون ... فوصفه لم يرو عن النبى ولا عن ابى بكر ، وانما روى عن عمر اى انه من محدثات عهده . لم يتأمل الفقهاء حكمة هذا القانون ، ولو تأملوها لقالوا بالغائه لانه قد اصبح غير ذى موضوع .

(ثالثا) وقف بناء الكنائس والبيع الجديدة :

وقضية ثالثة جرى عليها العمل ، وطبقتها السلطة السياسية فى تاريخنا ، او فى بعض فتراته ، وهى حظر بناء دور العبادة الجديدة لغير المسلمين من أهل الكتاب ، غير تلك التى كانت قائمة عند فتح البلاد من قبل العرب المسلمين وعقد الصلح بينهم وبين اهل تلك البلاد فى ذلك التاريخ ... بل اننا نجد كتب الفقه الاسلامى تكاد تجمع على منع قيام هذه المعابد الجديدة ، وتطلب الاقتصار على ماكان قائما منها عند الفتح ، كنائس كانت للنصارى او بيعا لليهود او بيوت نار للمجوس . واقصى ما تبيحه هذه الكتب هو ترميم بيوت العبادة هذه دون زيادة او توسيع .

والامر الذى لاشك فيه هو ان مثل هذا الحكم وتطبيقه انما يمثل مظهرا للتفرقة الدينية وللطائفية ، ويؤكد غياب الوحدة الوطنية والقومية . اذ ما الذى تعنيه اباحة اقامة المساجد الجديدة دونما حظر او تحديد ، مع منع غير المسلمين من ممارسة هذا الحق الذى يمارسه المسلمون ... هى اذن تفرقة لاسبب لها الا اختلاف الشرائع الدينية ... ولا يحق لباحث مخلص عن الحقيقة .. ان يتجاهل ان نصوص الفقهاء هذه ، والادلة التى استندت اليها من المعاهدات والمصالحات وكذلك تطبيقاتها التى نهض بها ساسة العصور الوسطى و حكامها وعوامها ، ان هذه الاشياء قد غدت لدى الكثيرين من المسلمين " مسلمات دينية وشرعية " ، تسلب الشرعية عن اغلب دور العبادة غير الاسلامية ، وتجرد القرارات الحديثة باقامة المعابد الجديدة لاهل الكتاب من الحجية والشرعية . ومن ثم فلابد من فتح باب النظر من جديد فى هذا الحكم الذى اجمع عليه اغلب الفقهاء ، والبحث عن علاقته بالاسلام ، كدين ، وبالشريعة الاسلامية ، كمنهج الهى يجب ان يلتزمه المسلمون . ومنذ البداية فنحن نرى ان هذا الحكم ، رغم وروده فى كتب الفقه ، فهو ليس دينا ، ولا هو من الشريعة الدينية وانما هو من الترتيبات الادارية والسياسية التى مارستها السلطة السياسية بعد عصر الفتوحات

دفوعة بقدر غير ضئيل من التعصب وضيق الافق . ثم جاء الفقهاء فقننوها وجملوها فقهها ، وذلك
عد ان استولوا عليها بنصوص معاهدات واتفاقات صلح عقدت في صدر الاسلام ..الخ (انتهى) .

وان كانت هذه الاصوات المخلصة تدل على ان الحق له انصاره ومريدوه في كل مكان وزمان ،
كنه يؤسفنا الى جانب الكلام السابق ان يقع في ايدينا كتاب " اقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس
مصر والقاهرة " لشيخ الاسلام احمد الدمنهوري في القرن الثامن عشر وعني بنشره موسى بيرلمان ،
طبعته جامعة كاليفورنيا سنة ١٩٧٥ ، الذي يورد آراء فقهاء المذاهب الاربعة بوجوب هدم الكنائس
يس المستحدث منها بل حتى ما كان قائما بها من بيوت العبادة لغير المسلمين .

عرضنا فيما سبق لاحوال مصر وشعبها وكنيستها ، التي مهدت لفتح العرب لمصر . ثم تناولنا
وضوع الفتح العربي لمصر ، وما ترتب عليه . ثم ناقشنا موضوع الشريعة الاسلامية واهل الذمة
... والآن نعرض لاحوال الكنيسة القبطية وشعبها في ظل الحكومات الاسلامية ، منذ الفتح العربي
سنة ٦٤٢ ، حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي .

وستكون دراستنا على النحو التالي :

(١) عصر الولاة المسلمين ويبدأ من فتح العرب لمصر سنة ٦٤٢ ، وينتهي بقدوم احمد بن طولون الى مصر وتأسيس دولة مستقلة في مصر الاسلامية سنة ٨٦٨ م .

(٢) عصر الدولة المستقلة في مصر الاسلامية ، ويشمل حكم الطولونيين ، والاخشيديين ، والفاطميين والايوبيين والمماليك البحرية والبرجية ، اى الفترة من سنة ٨٦٨ الى سنة ١٥١٧ م .

(٣) مصر كولاية تابعة للدولة العثمانية من سنة ١٥١٧ حتى آخر القرن الثامن عشر ، وتشمل هذه الفترة مجيء الحملة الفرنسية الى مصر .

++++

الكنيســة القبطيــة فى عصر الولاة المسلمين

(٦٤٢ ـ ٨٦٨ م)

يقصد بعصر الولاة الفترة التى كانت فيها مصر ولاية تابعة للخلافة ، يحكمها ولاة من قبل الخلفاء • فكانت الخلافة تبعث بالولاة من مقرها فى المدينة المنورة زمن الخلفاء الراشدين ، ومن الكوفة زمن على بن ابى طالب ، ومن دمشق زمن الايوبيين ، واخيرا من بغداد وسامرا زمن العباسيين ••• كان الولاة عربا من ابناء القبائل العربية حتى نهاية الدولة الاموية • اما فى عصر العباسيين فكان الولاة خليطا من العرب والفرس والخرسانيين والاتراك •

وندرس احوال الكنيسة القبطية وشعبها من خلال استعراض النقاط التالية ، التى تظهر لنا ملامح هذا العصر :

(أولا) كثرة عدد الولاة المسلمين :

أول ما يلاحظ على تلك الفترة كثرة عدد من تولوا حكم مصر ••• فالاحصاءات تدل على ان الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين منذ ولاية عمرو بن العاص الى ولاية احمد بن طولون ، نصبوا مائة واحد عشرا (١١١) واليا فى مدة ٢٢٥ سنة •• وطبيعى ان المدة القصيرة التى كان يقضيها كل وال فى حكم مصر لم تتح له فرصة اتباع سياسة انشائية ، ووضع خطة معينة لخير البلاد وشعبها •

ويقدم لنا الاستاذ جاستون فييت فى بحث له عن مساجد القاهرة احصاء عن ذلك فيقول " حكم مصر اثناء خلافة الامويين واحد وعشرون واليا • اثنان منهم وليا الحكم مرتين ، وواحد منهم ثلاث مرات ••• كان خمسة من هؤلاء من اسرة الخلفاء • وقد توفى ستة منهم وهم ولاة ، ونقل الخليفة او اقال احد عشر منهم ، واستقال احدهم وطرد الجند آخر لانه خفض رواتبهم ••• مكث احدهم على كرسى الولاية ستة عشر يوما •• واذا انتقلنا الى الخلافة العباسية ، الفيناهم عينوا اربعة وستين واليا ••• ومما يلفت النظر ان عدد التنقلات قد ازداد فى عصر العباسيين عما كان عليه فى حكم الامويين ••• ويرجع السبب الى ان السلطة المركزية كانت بعيدة جدا فى بغداد • وكان الخليفة لا يريد ان يترك للولاة متسعا من الوقت يستطيعون خلاله استمالة قلوب الشعب اليهم • وكان الخوف من نفوذ الولاة قد طبع فى قلوب الخلفاء شيئا من الخوف المستديم •••

ان عدم الاستقرار الذى لازم تعيين الولاة لم يكن فى صالح البلاد على الاطلاق • اذ كيف تطلب من موظف جاء من الخارج ويثق من عدم بقائه فى الولاية ان يعير البلاد اهتمامه ، او ان ينظم مواردها او ان يسهر على دولاب ادارتها ••" • وكمثال لكثرة عدد من تولوا حكم مصر ، بالاضافة الى ما تقدم ، ما حدث فى خلافة هارون الرشيد الخليفة العباسى التى امتدت الى ثلاثة وعشرين عاما لقد حكم مصر فى مدة خلافته اربعة وعشرون واليا ••

كان كل هم من يتولى حكم مصر هو الاثراء بأية صورة من الصور وفى اقصر وقت ممكن • وبطبيعة الحال فان هذا لايتأتى الا بكثرة المظالم على الشعب المسكين ••• ومن ياترى هو ضحية هذه المظالم سوى الاقباط الذين رفضوا اعتناق الاسلام وثبتوا على ايمانهم المسيحى ••

(ثانيا) سياسة الخلفاء والولاة تجاه مصر اساسها المنفعة المادية :

ذكر بن عبد الحكم فى كتابه "فتوح مصر" حديثا منسوبا الى عبد الله بن صالح عن مصر قال : "من اراد ان يذكر الفردوس ، او ينظر الى مثلها فى الدنيا ، فلينظر الى ارض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها" (ص ٤ ، ٥) ••• ان صيحة الاعجاب بمصر رددها كل اعرابى وطئت قدماه وادى النيل ••• وكان من الطبيعى ان يعمل رجل البادية ، الذى خرج منتصرا بعد حرب شنها على امبراطوريتين (الفارسية والبيزنطية) ، على الاستفادة من انتصاراته ••• وهذا الأمر واضح من الحاح الجيوش المنتصرة لتوزيع اراضى البلاد المفتوحة فى العراق وسوريا ومصر •

ومما يكشف النظرة المادية البحتة التى كان عليها الخلفاء والولاة من نحو مصر ، تلك الكلمات المنسوبة الى عمر بن الخطاب الذى يوصف بأنه كان اكثر الخلفاء عدلا ••• اذ لما حاقت المجاعة بالمدينة المنورة ، طلب عمر ان يستعجل ارسال القمح اللازم من مصر وقال "اخرب الله مصر فى عمران المدينة وصلاحها" •• (الطبرى فى تاريخه ، البلاذرى "فتوح البلدان" — اقباط ومسلمون ص ٧٩) •• وعندما تكلم عمر عن الشعوب المغلوبة قال "يأكلهم المسلمون ماداموا أحياء • فاذا هلكنا وهلكوا ، اكل ابناؤنا أبناءهم ما بقوا" • (ابو يوسف "الخراج" — اقباط ومسلمون ص ٧٩) •

ومما يفضح تلك الروح المادية الجشعة ، خطابان متبادلان بين الخليفة عمر وواليه على مصر عمرو بن العاص بخصوص ما تغله مصر من ضرائب ••• فقد حدث ان قيمة الضرائب التى كان يرسلها عمرو

الى الخليفة ، اخذت فى التناقص سنة بعد اخرى ، اما بسبب دخول بعض الاقباط فى الاسلام وما ترتب على ذلك من رفع الضرائب عنهم ، واما بسبب عدم نزاهة عمرو نفسه وقد قيل عن ذلك الكثير ... يقول عمر فى خطابه الى عمرو " ... اما بعد ، فانى فكرت فى امرك والذى انت عليه ، فاذا أرضك ارض واسعة عريضة رفيعة ... وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك . واعجب مما عجبت انها لاتؤدى نصف ماكانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جدب " ، فرد عمرو بالآتى " ... اما بعد فقد بلغنى كتاب امير المؤمنين فى الذى استبطانى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، واعجابه من خراجها على ايديهم ، ونقص ذلك فيها مذ كان الاسلام . ولعمرى للخراج يومئذ اوفر واكثر ، والارض اعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم ارغب فى عمارة ارضهم منا منذ كان الاسلام . وذكرت ان النهر يخرج الدر ، فحلبتها حلبا قطع درها " (ابن عبد الحكم " فتوح مصر " اقباط ومسلمون ص ٧٥/٧٦) ... وقد تكرر اتهام عمرو بنفس التهمة زمن عثمان بن عفان فقد كان عمرو يجمع اثنى عشر مليونا من الدينارات ضريبة جزية ، فرفعها الوالى الذى اتى بعده وهو عبد الله بن سعد بن ابى سرح الى اربعة عشر مليونا . فقال الخليفة عثمان لعمرو " يااباعبد الله ، درت اللقحة بأكثر من درها الاول " . فقال عمرو " اضررتم بولدها " .

كان هذا هو حال الخلفاء ، فكم يكون حال الولاة ؟؟

والحق ان المسائل المالية كانت شغل الخلفاء الشاغل ... كانت الضرائب فى تناقص مستمر .. وبينما كان الدخل ينقص اخذت المصروفات تزداد ... اما السبب فى ذلك فكان الرغبة فى القيام بفتوحات جديدة ، وضرورة تأمين سلامة الامبراطورية . الامر الذى اقتضى الاحتفاظ بجيوش كثيرة العدد والعدة ... كما اقتضت الضرورة انشاء قوة لحفظ الامن الداخلى .

كان الجيش يستنفد الجزء الاكبر من الدخل ... حاول الخلفاء ضغط الميزانية بخفض مرتبات الجند ، لكنهم فشلوا فى ذلك عدة مرات ... لم يكن امامهم اذن سوى البحث عن حلول اخرى لا تعرضهم للخطر ، فلجأوا الى زيادة الضرائب على شعوب البلاد المفتوحة ...

يذكر ابن الحكم واقعة حدثت مع احد اقباط الصعيد ويدعى بطرس يقول " ان عمر بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر ان من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته " . ونما لعلم عمرو ان

بطرس هذا عنده كنز ، فأرسل اليه ، ولما سأله انكر ، فحبسه ى السجن ، وكان عمرو يسأل من حوله ى السجن " هل تسمعونه يسأل عن احد " فقالوا " انما سمعناه يسأل عن راهب ى الطور " . فأرسل عمرو الى بطرس ، ونزع خاتمه من يده ، وكتب الى ذلك الراهب ، ليبعث اليه بما عنده وختمه بخاتمه (وكأن الخطاب صادر من بطرس) . فعاد رسول عمرو بقلة شامية مختومة بالرصاص . ولما فتحها عمرو وجد فيها صحيفة مكتوب فيها " مالكم تحت الفسقية الكبيرة " فأرسل عمرو الى الفسقية ، فحبس عنها الماء ثم قلع البلاط الذى تحتها ، فوجد فيها اثنين وخمسين اردب ذهب مضروبة . فضرب عمرو رأسه (بطرس) عند باب المسجد . فذكر ابن رقية ان القبط اخرجوا كنوزهم شفقا ان يبقى على احد منهم فيقتل ، كما قتل بطرس " . (ابن عبد الحكم : فتوح مصر) .

وعلى الرغم مما يوصف به عبد العزيز بن مروان (٦٨٥ ــ ٧٠٥) من عدل ى مدة ولايته على مصر التى امتدت الى واحد وعشرين عاما متتالية ، لكنه استحدث فرض ضريبة على الرهبان ظلت سارية بعده . جاء بعد عبد العزيز بن مروان اخوه عبد الله ، ولم يكتف بتثبيت ضريبة الدينار على رجال الدين المسيحيين ، بل سجن البابا الكسندروس الثانى البطريرك ٤٣ (٧٠٠ ــ ٧٢٤) حتى يدفع له ثلاثة آلاف دينار . يقول ساويرس بن المقفع " ى تلك الايام خرج الطوبانى الكسندروس وسار الى مصر ليسلم عليه (الوالى) كالعادة من البطاركة والولاة . فلما نظر اليه قال ايش هو هذا . قالوا له هذا أب وبطرك جميع النصارى . فأخذه وسلمه لواحد من حجابه وقال له افعل به ما تريد من الهوان الى ان يقوم بدفع ثلاثة آلاف دينار . فأخذه واقام عنده ثلاثة ايام ... فلما نظر ذلك جرجة الشماس انه ما يفرج عن البطرك الا بعد ان يأخذ المال تقدم اليه وقال له (الوالى) وقال له ياسيدنا تطلب نفس البطرك او مالا . فقال له اريد المال فقال له الشماس جرجه ضمنى اياه مدة شهرين انحدر به الى بحرى اطلب له من الاراخنة والنصارى واقدم لك عنه ثلاثة آلاف دينار . فسلمه اليه فطاف به المدن والقرى على المؤمنين بالمسيح حتى حصل المال وحمله " ... ويصف ساويرس بن المقفع هذا الوالى بأنه " كان محبا للمال جدا " حتى انه حصل من اهل الذمة ثلثى دينار زيادة عما كانوا يدفعونه ... ويؤيد رواية ساويرس الكندى ويتهمه بأنه شجع الرشوة وملأ جيوبه بمال الجزية " . (كتاب الولاة والقضاة ــ عن اقباط ومسلمون ص٩٣) .

وخلف عبد الله فى ولايته آخر اسمه قرة بن شريك ، وكان هو الآخر جشعا ظالما حتى ان البطريرك الكسندروس لما ذهب اليه ليهنئه بالولاية قبض عليه وقال له " الذى قبضه منك عبد الله بن عبد الملك تحتاج ان تقوم لى بمثله " يقصد ان يدفع ثلاثة آلاف دينار . وعبثا حاول البطريرك ان يفهم الوالى ضيق ذات يده وانه لايملك شيئا بل انه مازال مديونا بخمسمائة دينار . فكان رد الوالى عليه " هذا الكلام ما ينفع " . ولو انك تبيع لحمك لابد من ثلاثة آلاف دينار والا فما تخلص من يدى " . وكانت النتيجة ان خرج البطريرك فى هذه المرة الى بلاد الصعيد ليتصدق من اولاده المسيحيين ليوفى هذا المبلغ ..ح

ومما يذكر فى هذا الصدد ما ارتكبه اسامة بن زيد والى مصر قبل الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك ... كان اسامة هذا اكثر جشعا ممن سبقوه من الولاة . ويذكر المؤرخون المسلمون والمسيحيون انه صادر الاملاك بغير حق كما اسرف فى القتل بصورة وحشية . جمع الرهبان واخبرهم بابقاء الضريبة عليهم . واجبرهم على ان يطلبوا من رجال الضرائب خاتما من حديد تنقش عليه اسماؤهم وموعد دفع الضرائب ، ويضعونه فى احدى اصابعهم . واذا قبض على راهب ولم يكن يضع الخاتم فى يده ، كانت تقطع يده فى الحال ... ونفذ هذا الامر . اما الرهبان الذين لجأوا الى الاديرة ليختبئوا فيها ، فقد قام رجال الشرطة بالبحث عنهم حتى تعثروا عليهم ، وحكم عليهم بقطع رؤوسهم او جلدهم بوحشية . (ساويرس بن المقفع ، تاريخ البطاركة ٣٢٤ ، ٣٢٥) .

<u>(ثالثا) العرب لم يكن لهم سياسة ثابتة فى حكم البلاد :</u>

بالاضافة الى النقطة السابقة التى عالجنا فيها سياسة الخلفاء والولاة المادية تجاه مصر نقول ان هناك طابعا آخر لازم الحكم العربى اثناء الفتوحات فى مصر وفى جميع البلدان التى احتلها العرب ، الا وهو افتقار الحكم الى خطة مرسومة يسير عليها . فالقرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت تصدر حسب الظروف ولمقتضيات الحال . يقول بعض المؤرخين ان السبب فى ذلك يرجع الى انه لم يكن فى نية العرب الاقامة فى تلك البلاد وادارتها ، بل كانوا يهدفون الى غرض واحد هو المحافظة على سلامة مؤخرة جيوشهم حتى يقوموا بفتوحات جديدة . وهذا بالتالى دفعهم الى الرغبة فى الحصول على المال الكافى لمتابعة اعمالهم العسكرية الجديدة .

كانت الخطة المرسومة الا يختلط الجنود العرب بالشعوب المغلوبة • وكان رؤساؤهم يمنعونهم من ذلك • ويذكر لنا بن عبد الحكم ماقاله الخليفة عمر بن الخطاب عن جيش الاحتلال العربى لمصر " انى لااحب ان ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف " • هذا ونحن لا نجد بين الوثائق التاريخية ما يدل على اى اجراء او تدبير قام به الحكام العرب من اجل زيادة ثروة البلاد الاقتصادية او اصلاح احوالها ورفع المعاناة عن الشعب ••• وان كان ثمة شيء قد تم ، فقد كان الغرض منه خدمة مصالح المستعمر • من امثلة ذلك اعادة حفر قناة تراجان من اجل تسهيل ارسال قمح مصر الى البلاد العربية القاحلة فى اقصر مدة وأسهل الطرق • لكن مالبثت هذه القناة ان اهملت فردمتها الرمال أوائل القرن الثامن الميلادى • وردمها حكام مصر بين سنتى (٧٦١ ، ٧٦٢) كى يمنعوا ارسال الاقوات الى المدينة (المنورة) عندما اصبحت مصدرا للثورات • وقد سخر الحكام السكان لتطهير القنوات واعادة بناء الطرق والجسور ، مقابل اعفائهم من قسط من الضرائب تتلاءم مع ما قاموا به من عمل (المقريزى ، الخطط ج ١ ص ٧٤) •

ثم بينما كان بناء الكنائس محظورا فى المدن التى انشأها العرب ، سمح عبد العزيز بن مروان ببناء كنيسة فى حلوان لوجود بعض المسيحيين الملكانيين فى خدمة الوالى ••• ونفس السياسة اتبعها الخليفة العباسى المأمون حال اقامته فى مصر ، واستخدم بعض النصارى الذين التمسوا منه تشييد كنيسة بالقرب من قبة الهواء ، فأذن لهم (ابن بطريق ص ٤١ ، ٥٨ — اقباط ومسلمون ٦٤)

ويروى تاريخ البطاركة انه لما هبط مستوى النيل سنة ٧٥٢ م ، رفعت صلوات الى الله من اجل ارتفاع ماء النيل فصلى المسلمون وتبعهم اليهود دون جدوى ، ولم تحدث المعجزة الا حينما بدأ النصارى فى الصلاة • فقرر نائب الوالى مكافأتهم ، فخفض الجزية وامنهم على حياتهم واملاكهم فى القطر المصرى كله (تاريخ البطاركة) •

وليس ادل على سياسة الحكام الارتجالية واتخاذهم قرارات متناقضة ، مما حدث سنة ٧٨٥م حين امر الوالى على بن سليمان بهدم الكنائس المحدثة بمصر ، لكنه لما اعطى خمسون الف دينار مقابل تركها قائمة عدل عن قراره • هذا بينما صرح موسى بن عيسى الذى خلفه سنة ٧٨٧ م بباعادة تشييد الكنائس لاعتبارات مادية خالصة • وقد اقدم على هذا بعد ان سأل الفقهاء رأيهم فى هذه المشكلة ، فأفتوا بأن الكنائس هى " من عمارة البلاد " ويجب الا يكون الوالى اكثر تطرفا ممن

سبقوه بدليل ان " عامة الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين " . (الكندى ١٣١ ، ١٣٢) ... ومما هو جدير بالملاحظة ان الغوغاء فى سنة ٧٣٥ م — اى قبل ذلك ببضع سنوات — قاموا على الوليد بن رفاعة ، لانه صرح للنصارى ببناء كنيسة مارمينا .

(رابعا) أمثلة من المتاعب التى حاقت بالكنيسة :

ليس من المبالغة ان قلنا ان المصادر القديمة التى سجلت لنا تاريخ تلك الفترة ، ترسم لنا صورة قاتمة محزنة اليمة عن المآسى التى عانت منها كنيسة المسيح فى مصر والاقباط ... وقبل ان نتكلم بشئ من التفصيل عن تلك المآسى نسجل شهادة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف استاذة التاريخ الاسلامى فى كتابها مصر فى عصر الولاة ... تقول :

" على ان سياسة العرب نحو الاقباط بدأت تتغير عما كانت عليه فى السنين الاولى التى تلت الفتح ووجد قسم كبير من الاقباط ان من مصلحتهم الدخول فى الدين الاسلامى والتعرب هربا من المضايقات الاجتماعية والادبية ، او فرارا من الضرائب المتزايدة عليهم ، او رغبة فى الابقاء على مناصبهم ... والمعروف ان العرب بعد فتوحاتهم العظيمة ، وتفوقهم على شعوب لها حضارات عريقة ، وبعد استقرار اقدامهم فى البلاد المفتوحة بدأوا يشعرون بتفوق شعبهم على سائر الشعوب ، وتفوق لغتهم ودينهم على سائر اللغات والاديان . ولم تكن هذه النزعة قوية فى السنوات الاولى للفتوحات العربية ، حينما كانت تغلب عليهم روح البساطة والتواضع . ولكنها سرعان ما ازدادت وضوحا ... وليس ادل على هذه الروح الجديدة مما ذكره المقريزى عن معاوية بن ابى سفيان فقد اثر عنه انه قال : وجدت اهل مصر ثلاثة اصناف . فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس ، وثلث لا ناس . فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب . والثلث الذى يشبهون الناس فالموالى . والثلث الذين لا ناس المسالمة يعنى القبط . وقد وقع الاقباط تحت طائل الاقبا المضايقات والشدة لكن هذه المضايقات لم تكن دائمة ، وانما حدثت فى فترات متقطعة ... ومن المضايقات التى تعرض لها الاقباط فى مصر انه كان هناك امور يجب على اهل الذمة اتباعها من حيث بناء الكنائس ، ومن حيث لباسهم وزيهم والدواب التى يركبونها ، وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين فى مظهرهم من الناحية الاجتماعية والادبية . ويذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن الخطاب امر بألا يتشبه

أهل الذمة في الدولة الاسلامية بالمسلمين في مظهرهم وفي لباسهم ، والا يبقى من الكنائس الا ما كان قبل الاسلام . كما امر الخليفة بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة . وكذلك منع الخليفة من تجديد اي كنيسة ... وفي سنة ٢٣٥ هـ ايام الخليفة المتوكل على الله العباسي ، امر المتوكل بأخذ اهل الذمة بلبس الطيالسة (شال او طرحة) العسلية ، والزنانير (الحزام الذى يشد على الوسط) ، وركوب السروج بركب الخشب . وتكون السروج كهيئة الاكف (بردعة الحمار) ، وعلى رؤوسهم القلانس المختلفة الالوان . وان تخيط الرقاع على ظهورهم وصدورهم . كل رقعة قدر اربع اصابع ولونها عسلي . وأزر نسائهم عسلية ، وملبس مماليكهم مثلهم . ويمنعون من لبس المناطق . وهدم بيعهم المحدثة . وأخذ العشر من منازلهم . فان كان الموضع واسعا صير مسجدا ، وان كان لايصلح ان يكون مسجدا صير فضاء . وامر ان تجعل على باب دورهم اساطين (عمدان) وقيل شياطين من خشب مسمورة تفريقا بين منازلهم ومنازل المسلمين . ونهى ان يستعان بهم في الدواوين واعمال السلطان التي تخالف احكامهم فيها احكام المسلمين . ونهى ان يتعلم اولادهم في كتاتيب المسلمين ، وان يعلمهم مسلم . ونهى ان يظهروا في اعيادهم وشعانينهم صلبانا . وامر بأن تسوى قبورهم بالارض لئلا تشبه قبور المسلمين . وكتب الكتب الى عماله في الآفاق بذلك . ثم امر اهل الذمة في سنة ٢٣٩ هـ بلبس دراعتين (الدراعة قميص مفتوح من الامام الى موضع القلب) عسليتين على الدرايع والاقبية (القباء ثوب يلبس فوق الثياب) . وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين (الخيول التركية) ...

والواقع ان العصبية الدينية تغلبت على العرب بعد الفتح ، وتغلب عليهم الشعور بعزتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب ، بعد ان انشأوا امبراطوريتهم الاسلامية بحد السيف . فرأوا ان يتميزوا عن غيرهم في اللباس والزى والركوب وغير ذلك مما يشعر في الوسط الاجتماعي بأنهم هم السادة وغيرهم دونهم . ولذا نراهم يعاملون اهل الذمة معاملة الطبقات الدنيا ، مهما كانت ثروتهم ومراكزهم في الدولة ، مما حمل الكثيرين على الدخول في الدين الاسلامي رغبة في التخلص من تلك المضايقات . كما ان العرب وقد اصبحت البلاد التي فتحوها ملكا للمسلمين رأوا ان ليس عليهم ان يبنوا كنائس فيها ، ويكفيهم ان يبقوا على ماوجدوه منها ، وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) احلال المسلمين محل المسيحيين حتى في الوظائف الصغيرة ... وما لبث ان ارسل كتابا يأمر فيه الاقباط بالتخلي عن اعمالهم في الدولة ما داموا

على دينهم • اما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد • كذلك استبعد عمر بن عبد العزيز رؤساء الكور الاقباط واحل محلهم المسلمين • وربما ادى قرار عمر بن عبد العزيز الى اسلام كثيرين اذ ذاك كى لا يتركوا مناصبهم ••• ومن المضايقات التى وقع الاقباط تحت طائلها ان الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) امر فى سنة ١٠٤ هـ بكسر الصلبان فى كل مكان ومحو الصور والتماثيل التى فى الكنائس • ولذا نرى ساويرس بن المقفع يصفه بأنه سلك طريق الشيطان وحاد عن طريق الله • وقد شمل هذا القرار اللاايقونى او حركة كسر الصور جميع بلاد الدولة الاسلامية • وكان من نتائج هذه الحركة فى مصر ان كسرت التماثيل والصلبان ومحيت الصور ولم تنج فى هذه الحركة بعض الآثار الفرعونية من الهدم والتخريب ••• وقد اصاب اقباط مصر كثير من الاذى اثناء الفتن التى قامت من اجل النزاع حول الخلافة • فعندما هرب الخليفة مروان بن محمد الى مصر ، عاث جنده فى البلاد فسادا ، فقتلوا جماعة من رجال الاقباط ونهبوا اموالهم وسبوا نساءهم ، كما احرقوا ديارات عدة وهدموا كثيرا من الكنائس ، واعتدوا على كثير من الراهبات • وفى ايام الفتنة بين الامين والمأمون اعتدى على الاقباط فى الاسكندرية ، واحرقت مواضع عديدة لهم كما احرقت ديارات وادى النطرون ، ونهبت فلم يبق بها من رهبانها الا نفر قليل • ولا شك ان المضايقات التى نالت الاقباط فى مصر احيانا ، والتعصب لكل ما هو عربى ومسلم ، وتعريب الدواوين لا شك ان هذا حمل كثيرين من المسيحيين فى عصر الولاة على اعتناق الدين الاسلامى وعلى تعلم اللغة العربية " • (د • سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الولاة ص ١١٤ — ١٢٢) •

والآن نستعرض بعض صور وامثلة لما حل بأقباط مصر من اضطهاد ومعاناة :

(١) ما يختص بالشعائر الدينية :

• عبد العزيز بن مروان والى مصر (٦٨٥ — ٧٠٥) الذى يوصف بأنه اكثر من حكموا مصر عدلا ، امر بكسر جميع الصلبان التى فى كورة مصر حتى صلبان الذهب والفضة ••• ثم كتب عدة رقاع وجعلها على ابواب الكنائس بمصر والريف يقول فيها " محمد الرسول الكبير الذى لله وعيسى ايضا رسول الله وان الله لم يلد ولم يولد " • (تاريخ البطاركة ص ٢٧٩) • وكان ذلك فى بطريركية البابا اسحق البطريرك ٤١ (٦٨٦ — ٦٨٩) • وذهب عبد العزيز بن مروان الى اكثر من هذا اذ مالبث ان ابطل اقامة القداسات • وحدث هذا فى بطريركية البابا سيمون الاول البابا الثانى والاربعين (٦٨٩ — ٧٠١) •

+ ويذكر المقريزى عن عبد العزيز بن مروان هذا انه اشتد فى معاملة النصارى وقد ذهب ولده الاصبغ الى دير حلوان فرأى صورة السيدة العذراء وهى تحمل طفلها المسيح فبصق عليها وقال " ان وجدت زمانا فانا امحو النصارى من هذه الكورة . ومن هو المسيح حتى تعبدوه الها " ... لكن الله اظهر قوته بعد ان رأى حلما مزعجا فى نفس تلك الليلة وفى اليوم التالى روى لابيه الحلم مرض بالحمى ومالبث ان مات فى الليلة التالية . وبعد اربعين يوما لحقه ابوه ومات . (تاريخ البطاركة ص ٣٠٧ ، ٣٠٨) . وكان ذلك فى بطريركية البابا الكسندروس الثانى .

وفى مدة بطريركية البابا خائيل الاول ٤٦ (٧٤٤ — ٧٦٨) هم القاسم ابن عبد الله الحجاب متولى الخراج — وكان شريرا محبا للنساء بالدخول الى البيعة بدير الانبا شنودة بالصعيد ، وهو راكب فرس ، ومعه سرية مفضلة لديه كانت تركب على فرس آخر ... حاول رئيس الدير منعه ، لكنه فى غطرسة ابى ، ودخل البيعة ، فنفرت الفرس التى تركبها السرية ، فوقعت على الارض ميتة ، ونفقت الفرس ايضا ... اما القاسم فصرعه روح نجس لبث ملازما له يعذبه حتى مات .

(٢) مظالم ضد الاكليروس والاقباط العلمانيين :

تعاقب على مصر ولاة وعمال خراج من قبل الخلفاء ... وقد اشرنا سابقا الى كثرة عددهم لغاية فى نفوس الخلفاء الذين ولوهم . فكان هم هؤلاء الولاة والعمال هو الاثراء بأسرع وسيلة ، لانهم كانوا على يقين من انهم لن يستمروا طويلا فى مناصبهم ... وفى سبيل الحصول على المال لم يألو هؤلاء جهدا فى اضطهاد قبط مصر وتعذيبهم وسلب اموالهم وهتك اعراضهم وتقطيع اعضائهم بل وقتلهم ، ومحاولة النيل منهم واذلالهم بكل الطرق ، وبوسائل يقف المرء ازاءها مذهولا لبشاعتها ... وللامانة التاريخية نقول ان مظالم بعض هؤلاء الولاة وعمال الخراج عمت الشعب كله اقباط ومسلمين . لكن الاقباط حظوا بالنصيب الاوفر من المظالم ... لقد احتمل الاقباط المظالم لكونهم مسيحيين اولا ، ثم احتملوا المظالم لكون الولاة وعمال الخراج جشعين ... ونعرض الآن لبعض النماذج :

+ البابا يوحنا السمنودى ٤٠ (٦٧٢ — ٦٨٦) :

نالته شدائد من عبد العزيز بن مروان والى مصر (٦٨٥ — ٧٠٥) والسبب فى ذلك وشاية من حاسد ... فعبد العزيز فى أول سنة تولى فيها مصر ذهب الى الاسكندرية ليأخذ خراجها

ولكن البطريرك لم يخرج للقائه معتذرا بضعفه ، الامر الذى وشى به الى عبد العزيز على انه تعالى من البطريرك ... غضب عبد العزيز وامر بالقبض عليه حتى يدفع مائة الف دينار . وان يوقفوه على جمر نار ... وكاد الامر يتم لولا ان زوجة عبد العزيز رأت حلما واخبرت به زوجها بألا يفعل سوءا بالبطريرك ... ومع ذلك فقد هدد عبد العزيز الوالى الاب البطريرك بأنه سيلبسه ثياب يهودى ويلطخ وجهه برماد وسيأمر بأن يطوفوا به المدينة بهذه الصورة ... لكن البابا لم يرهب ... واخذ الوالى يقلل المبلغ حتى وصل الى عشرة الاف دينار . فلما سمع الكتاب والمسيحيون طلبوا الى البطريرك ان يقبل دفع هذا المبلغ وهم سيتولون جمعه خشية ان يجرى على البيعة اضطهاد وفعلا انتهى الامر بذلك (تاريخ البطاركة ٢٦٧) .

+ فى بطريركية البابا الكسندروس الثانى ٤٣ (٧٠٥ — ٧٣٠) :

فى آخر حياة عبد العزيز بن مروان التى امتدت لنحو عشرين عاما ، اعطى ابنه الاكبر ويدعى الاصبغ نفوذا وسلطانا على كل اقليم مصر . وكان الاصبغ يبغض النصارى ، محبا لسفك الدماء . استخدم مواهبه لمضايقة المسيحيين ... وقد ساعده على تحقيق مآربه شخص يدعى بنيامين ... قيل انه كان قبلا شماسا فى الكنيسة ، ثم ارتد عن الايمان واعتنق الاسلام . التصق به وصار صديقه الحميم وبدأ يكشف له عن خطط يضايق بها الاقباط وتقلل عددهم ... انفذ الاصبغ اثنين من خاصته الى اديرة وادى النطرون وقاما بخصى جميع الرهبان هناك !! وفرض جزية على كل راهب مقدارها دينار . كما امر الاديرة الا ترهب احدا ... وكان الاصبغ هو اول من فرض جزية على الرهبان ... وفرض على الاساقفة ان يؤدوا عن ايبارشياتهم الفى دينار غير ماكانوا يدفعونه ... وقد ضغط الاصبغ ضغوطا رهيبة على الاقباط ، فكان من نتيجتها ان اضطر البعض الى اعتناق الاسلام ، ومن بينهم بطرس والى الصعيد واخيه تاودور وابن مقدم مريوط وعدد كبير من الكهنة والعلمانيين .. لكن السيد المسيح لم يمهله ليتمادى فى طغيانه . ففى يوم سبت الفرح دخل الى دير حلوان ، فرأى صورة العذراء مريم تحمل ابنها . فلما نظر اليها سأل الاساقفة عن الصورة ، فلما قالوا له انها للعذراء مريم ام المسيح ، تكلم بافتراء عليها ، وبصق على الصورة ، وقال " ان وجدت زمانا فانا امحق النصارى من مصر . ومن هو المسيح حتى تعبدوه الها " ... فى نفس تلك الليلة ازعجه الله بحلم رأى فيه السيد المسيح جالسا على عرش عظيم ، ووجهه يضيء اكثر من الشمس .

ورأى نفسه ووالده خلف المسيح موثوقين بسلاسل ... فلما سأل عن الجالس على العرش قيل له انه يسوع المسيح ملك النصارى الذى هزأ به .. والفعل اصيب بحمى لم تمهله ، ومات فى الليلة التالية . اما والده عبد العزيز فمات بعد اربعين يوما حزنا وكمدا عليه .

+ خلف عبد العزيز بن مروان فى ولاية مصر عبد الله بن عبد الملك (٧٠٥ _ ٧٠٩) :

وهو ابن الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان . وبلغ هذا الوالى من القساوة والغلظة حدا كبيرا حتى ان ساويرس بن المقفع يقول عنه " كان كالوحش الضارى ، حتى انه فى اكثر اوقاته اذا جلس على المائدة يقتلون الناس قدامه . وربما طار دمهم فى الصحن الذى يأكل منه فيفرح بذلك " .. توجه اليه البابا الكسندروس ليهنئه بالولاية كالعادة . وحالما عرف ان هذا هو بطرك النصارى حتى سلمه لواحد من حجابه وقال له " افعل ماتريد من الهوان الى ان يقوم بدفع ثلاثة آلاف دينار " وظل محفوظا فى الحبس ثلاثة أيام . وعبثا حاول الاقباط تخفيض المبلغ . واخيرا سمح بالافراج عن البطريرك بضمانة شماس يدعى جرجه (جرجس) فى مدة شهرين ... ثم اخذ يطوف معه بلاد الوجه البحرى مدنه وقراه حتى تمكن من سداد المبلغ . (البطاركة ٣٠٨ ، ٣٠٩) . وقيل عن هذا الوالى انه كان يجمع رجال الدين المسيحى من اساقفة ورهبان واراخنة ويهزأ بهم ويقول لهم بتجبر " انتم عندى مثل الروم ومن قتل منكم واحدا غفر الله له لانكم اعداء الله " . ومن المظالم التى اقترفها هذا الوالى وجشعه فى محبة المال ان امر بعدم دفن ميت قبطى حتى يقوم اهله بدفع الجزية الواجبة عليه . وفى سبيل تحقيق ذلك عين انسانا مختصا بهذا الامر .

+ ولى مصر بعد عبد الله بن عبد الملك ، وال آخر يدعى قرة بن شريك (٧٠٩ _ ٧١٤) :

... وتكرر مع البابا الكسندروس ما حدث له من الوالى السابق ... فما ان قصده البابا للتهنئة بالولاية حتى قبض عليه وقال له " ما الذى قبضه منك عبد الله بن عبد الملك تحتاج ان تقوم لى بمثله " . وكان يقصد الثلاثة آلاف دينار ... وعبثا حاول البطريرك ان يفهمه ان الدين المسيحى يأمره بألا تكون له قنية وانه يحيا بالكفاف ، وان ما فعله به عبد الله بن عبد الملك كان ظلما نتيجة سعاية ظالمة وانه لم يجد معه شيئا ، وانه مازال مدينا بخمسمائة دينار من ذلك المبلغ ودار حوار عجيب بين الوالى والاب البطريرك ، انتهى فيه الوالى الى قوله للبطريرك " هذا كلام ما ينفع . ولو انك تبيع لحمك لابد من ثلاثة آلاف دينار والا فما تخلص من يدى " ... ولما

ايقن البطريرك انه لاجدوى من الكلام سأله ان يقصد الصعيد " ومهما فتح الله من صدقات الناس ارسله اليه " . (البطاركة ٣١٢ ، ٣١٣) .

+ وبلغ جشع الوالى قرة بن شريك حدا مذهلا ، حتى انه كان يستولى على تركة كل من يموت من الاراخنة والاقباط والاساقفة ، حتى ان ساويرس يقول عنه " وكان الناس يهربون ونساؤهم واولادهم من مكان الى مكان ، ولا يأويهم موضع من اجل البلايا ، ومطالبات الخراج ، وعظم ظلمه اكثر من تقدمه " . (البطاركة ٣١٨) .

+ واسامة بن زيد الذى حكم مصر بعد قرة بن شريك ، وكان قبل ذلك فى ولاية الخراج ، امر الرهبان " الا يرهبوا من يأتى اليهم ، ثم خصى الرهبان ووسمهم كل واحد منهم بحلقة من حديد فى يده اليسرى ليعرف . ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الاسلام " . وامر بعقاب من يهرب من هذا الاجراء بقطع احد اعضائه فشوه عددا كبيرا ، وحلق لحى كثيرين وقتل جماعة وقلع اعين جماعة بغير رحمة . بل ان البعض كان يموت تحت جلد السياط ... وبلغ من جبروته وجشعه فى محبة المال ان امر الولاة ان يقتلوا الناس ويحضروا اليه مالهم . ويقول ساويرس عنه انه كاتب الولاة وقال لهم " سلمت لكم انفس الناس فتحملوا ما تقدرون عليه من اساقفة ورهبان او بيع او كل الناس . فاحملوا القماش والمال والبهائم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا احدا واى موضع نزلتموه فانهبوه " . وفى مرارة يذكر ساويرس عنه ، انه " من الضيق والضنك هم الناس ببيع أولادهم " (تاريخ البطاركة ٣٢٢ ، ٣٢٣) .

+ وعبيد الله بن الحبحاب الذى ولى الخراج على مصر فى عهد الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك ارتكب صنوفا من المظالم لاتحصى . فجعل علامة الاسد على ايدى النصارى . وكل من يضبط فى اى موضع وليس على يده الرسم تقطع يده ... ومن ضمن الذين حاولوا وضع الرسم على يده البابا الكسندروس الثانى ، الذى رفض . ومن شدة ضيقة نفسه طلب الى الله ان ينقله اليه . وقد استجاب الله ذلك واخذ روحه . (تاريخ البطاركة ٣٣٢ ، ٣٣٣) .

+ وممن قبض عليهم عبيد الله هذا وعذبهم الانبا ~~جاجا~~ جمول اسقف اوسيم ، الذى اتهمه الوالى انه قام بتهريب البابا الكسندروس فافلت من قبضة يده ... ففرض على هذا الاسقف غرامة قدرها

الف دينار ... وكان الاسقف فقيرا يعجز عن قوت يومه . فلما عرف انه لايقدر على دفع ولا دينار واحد ، سلمه الى المعذبين . وهؤلاء جاءوا به الى باب بيعة الشهيد مارجرجس بمصر القديمة ، وهم يسحبونه . ثم نزعوا عنه ثيابه ، والبسوه مسح شعر ، وعلقوه بذراعيه وهو عريان ، والشعب ينظره وهم يضربونه بسياط من جلود البقر حتى سال دمه . وقد ظلوا يعذبونه لمدة اسبوع بهذة الكيفية . فجمع له المسيحيون ٣٠٠ دينار . ولم يفرج عنه الا بعد توسلات الكثيرين من الاقباط لعبيد الله . (تاريخ البطاركة ٣٣٢ ، ٣٣٣) .

+ وذكر عن احد جامعي الخراج ويدعي ابا ... جراح . هذا كان له اخوان ، اخذهما ودخل دير عامر بالرهبان قرب تانيس على اسم السيدة العذراء . فطرد الرهبان ونهب الدير . وبصق اخوه الاصغر على صليب كان بقلاية امين الدير الايغومانس ابيماخس ، مستهزئا به . فخرج الايغومانس من الدير وقال ان لم ينتقم الرب من هذة الاهانة لا اعود الى الدير ... وكانت نقمة الرب سريعة اذ شعر هذا المعتدى بحاجة لازالة ضرورة ، وهناك في دورة المياة انسكبت احشاؤه على نحو ما حدث لآريوس المجدف ومات . فصار خوف عظيم عند المسلمين في ذلك المكان . (البطاركة ٣٥٦ ، ٣٥٧) .

+ وحفص بن الوليد الحضرمى الذى ولى مصر (٧٤٢ _ ٧٤٥) اصدر امره بأن يصلى كل من بمصر واعمالها بصلاة السنة .. وكل من يتخلى عن دينه ويكون مسلما لاتؤخذ منه جزية . وبسبب هذا الاجراء " اضل الشيطان خلائق كثيرين فتخلوا عن دينهم " ... ولشدة الضيق خرج الاساقفة من كراسيهم الى الاديرة ليتضرعوا الى الله " وقيل ان من اعتنق الاسلام بسبب ذلك بلغ عددهم اربعة وعشرين الفا " . (البطاركة ٣٧١) .

+ وقد تنبأ الانبا موسيس اسقف اوسيم بأن الله سينتقم من حفص فيحرق جسده بالنار وسط الفسطاط ... وقد تم ذلك حينما ارسل الخليفة مروان الثانى حوثرة بن سهيل سنة ٧٤٥ بجيش الى مصر قوامه خمسة الاف مقاتل ليصبح واليا على مصر واعمالها . فاحرق حفصا بالنار واخذ جميع امواله .

+ وفي خلافة مروان بن محمد وولاية عبد الملك بن موسى على مصر ساد الاضطراب . واستدعى الوالى البابا خائيل ليدفع خراج البيع التابعة له . وطولب الاب البطريرك بما يفوق طاقته فعجز

من الوفاء بما يطالب به ... فأمر الوالى أن يعتقل البطريرك وتوضع فى رجله خشبة عظيمة وفـى رقبته طوق حديد ثقيل ... واعتقل مع الاب البطريرك الاباء الاساقفة انبا مويسيس اسقف أوسيـم وانبا تادرس اسقف مصر ، وانبا ايلياس بولس الابن الروحى للانبا مويسيس ، وجعلوهم فى خـزانـة مظلمة ... وظل البابا خائيل مكبلا بالحديد حوالى الشهر من ١١ توت الى ١٢ بابه ، لـم ير ضوء الشمس خلالها ، وبالاضافة الى هؤلاء الاباء ، كان فى المعتقل ثلثمائة رجل وامرأة .... واخيرا أفرج الوالى عن البطريرك تحت شرط ذهابه الى بلاد الصعيد ليأتى بما يستطيع جمعـه من اولاده المسيحيين ويقدمه للوالى ... وبالفعل اخذ الوالى ماتصدق به المسيحيون . ولـم يطلق سراح البطريرك الا بعد أن زحف قرياقص ملك النوبة المسيحى على القطر المصرى ، وكانت كنيسة النوبة تتبع الكنيسة القبطية كنسيا (البطاركة ٣٨٥ ـ ٣٩٣ ، رفيلة ٧٥) .

وبلغ من تجبر عبد الملك بن موسى والى مصر حدا كبيرا حتى ان الانبا ساويرس كاتب تـاريـخ البطاركة " ولم تجد ديار مصر طمأنينة ولا راحة فى ايام مملكة عبد الملك لانه لم يكن من جنس ملـوك الاسماعيليين (العرب) الذين ملكوا عليهم مثله . وصنع مع الديارات مالا يجوز لبغضه للنصـارى ولما كان يشاء ان يعمل كذلك فعل . والسيد المسيح الذى بيده قلوب الملوك ، رد قلبه لمحبـة ابا خائيل البطريرك ، وكان يدعوه الى قصره ويطلب منه ان يدعو له . وكانت ابنته قد سكن فيهـا روح نجس ، وكان عمرها اربع سنين . فسأل الاب البطريرك ان يصلى عليها فأخذ زيتا وصلـى عليها ودهنها به ، فخرج الشيطان منها للوقت . فصار يحب النصارى لاجل محبته للاب البطريرك وكان ايضا يحب الاساقفة ويكرمهم " (البطاركة ٤٠٢) .

+ وقد بلغت الضيقات التى حلت بالاقباط حد الذروة بعد تواجد مروان بن محمد على حينمـا وصلها هربا من العباسيين ... وصل مروان مصر سنة ٧٥٠ م = ٤٦٧ ش ... وقد اعلن الاعلان الآتى " كل من لايدخل فى دينى ويصلى صلاتى ويتبع رأيى من اهل مصر قتلته وصلبته . ومن دخـل معى فى دينى خلعت عليه " (البطاركة ٤١٢ ، ٤١٣) .

+ وكان البشموريون قد قاموا بثورتهم ضد الاحتلال العربى ... وحدث ان قبض حوثرة بن سهيل مقدم جيش مروان بالاسكندرية على البابا خائيل وقال له " كيف مكنت اولاد النصارى (يعنى البشموريين) ان يقاتلونا " ... وطلب منه مبلغا من المال ، ولما لم يستطع ان يحقق طلبه ، طرحـه فـى

من الوفاء بما يطالب به ... فأمر الوالى ان يعتقل البطريرك وتوضع فى رجله خشبة عظيمة وفى رقبته طوق حديد ثقيل ... واعتقل مع الاب البطريرك الاباء الاساقفة انبا موبسيس اسقف اوسيم وانبا تادرس اسقف مصر ، وانبا ايلياس بولس الابن الروحى للانبا موبسيس ، وجعلوهم فى خزانة مظلمة ... وظل البابا خائيل مكبلا بالحديد حوالى الشهر من ١١ توت الى ١٢ بابه ، لم ير ضوء الشمس خلالها ، وبالاضافة الى هؤلاء الاباء ، كان فى المعتقل ثلثمائة رجل وامرأة .... واخيرا أفرج الوالى عن البطريرك تحت شرط ذهابه الى بلاد الصعيد ليأتى بما يستطيع جمعه من اولاده المسيحيين ويقدمه للوالى ... وبالفعل اخذ الوالى ماتصدق به المسيحيون . ولم يطلق سراح البطريرك الا بعد ان زحف قرياقص ملك النوبة المسيحى على القطر المصرى ، وكانت كنيسة النوبة تتبع الكنيسة القبطية كنسيا (البطاركة ٣٨٥ ـ ٣٩٣ ، رفيلة ٧٥) .

وبلغ من تجبر عبد الملك بن موسى والى مصر حدا كبيرا حتى ان الانبا ساويرس كاتب تاريخ البطاركة " ولم تجد ديار مصر طمأنينة ولا راحة فى ايام مملكة عبد الملك لانه لم يكن من جنس ملوك الاسماعيليين (العرب) الذين ملكوا عليهم مثله . وصنع مع الديارات مالا يجوز لبغضه للنصارى وكما كان يشاء ان يعمل كذلك فعل . والسيد المسيح الذى بيده قلوب الملوك ، رد قلبه لمحبة ابا خائيل البطريرك ، وكان يدعوه الى قصره ويطلب منه ان يدعو له . وكانت ابنته قد سكن فيها روح نجس ، وكان عمرها اربع سنين . فسأل الاب البطريرك ان يصلى عليها فأخذ زيتا وصلى عليها ودهنها به ، فخرج الشيطان منها للوقت . فصار يحب النصارى لاجل محبته للاب البطريرك وكان ايضا يحب الاساقفة ويكرمهم " (البطاركة ٤٠٢) .

+ وقد بلغت الضيقات التى حلت بالاقباط حد الذروة بعد تواجد مروان بن محمد على حينما وصلها هربا من العباسيين ... وصل مروان مصر سنة ٧٥٠ م = ٤٦٧ ش ... وقد اعلن الاعلان الآتى " كل من لايدخل فى دينى ويصلى صلاتى ويتبع رأيى من اهل مصر قتلته وصلبته . ومن دخل معى فى دينى خلعت عليه " (البطاركة ٤١٢ ، ٤١٣) .

+ وكان البشموريون قد قاموا بثورتهم ضد الاحتلال العربى ... وحدث ان قبض حوثرة بن سهيل مقدم جيش مروان بالاسكندرية على البابا خائيل وقال له " كيف مكنت اولاد النصارى (يعنى البشموريين) ان يقاتلونا " ... وطلب منه مبلغا من المال ، ولما لم يستطع ان يحقق طلبه ، طرحه فى

الغلات التى بمصر قد احرقها مروان " (البطاركة ٤٢٢) •

+ خلف الامويين فى حكم مصر العباسيون سنة ٧٥٠ م • واذا كان العباسيون قد اظهروا نوايا طيبة نحو اقباط مصر فى بداية عهدهم ، لكن المشكلة الكبرى كانت فى الولاة الذين يعينون على مصر ... كان هؤلاء الولاة فى ظلمهم وحقدهم امتدادا للولاة الامويين • وكانت الدوافع التى دفعت ولاة الامويين الى ابتزاز الشعب ، هى عينها دوافع الولاة الذين ولوا مصر من قبل العباسيين ، خاصة وان مركز الخلافة صار فى بغداد وهى ابعد من دمشق • وربما استعصى الامر على المظلومين من أن يقرعوا باب الخليفة •

+ ويذكر تاريخ البطاركة فى سيرة البطريرك يوساب الاول (٨٣٠ ـ ٨٤٩) ان امرا وصل من بغداد صحبه رجل نسطورى اسمه العازر يقضى بنزع الاعمدة الرخامية والاضيات الرخامية من الكنائس لاستخدامها فى تزيين قصور الخليفة والامراء فى بغداد • وذلك لما عرف عن مصر من الشىء الحضارى • كان معنى نزع اعمدة الكنائس وحملها ان تهدم هذه الكنائس •• وما ان وصل العازر النسطورى حتى انضم اليه الخلقيد ونيون المقيمون بالاسكندرية واخذوا يرشدونه الى الكنائس الفخمة بالاسكندرية ، الى ان انتهى به المطاف الى بيعة الشهيد مارمينا بمريوط التى اهتم الاباطرة البيزنطيون بتزيينها ، وكان بها من الرخام الشىء الكثير جدا • فلما رأى ذلك النسطورى مابها من الرخام الملون تعجب وبهت وقال هذا مايحتاجه الخليفة • فلما سمع البابا يوساب بذلك ، قال لذلك النسطورى " هوذا كل البيع التى بحكمى بين يديك فافعل بها ما امرك به الملك وهذه البيعة فقط احب منك الا تعترضها • ومهما التمسته منى سلمته اليك " • لكن العازر لم يقبل شماتة منه • واخرج من البيعة المذكورة الرخام الملون والبلاط الذى يحوى الوانا بديعة ولا مثيل له ولا يقدر بثمن على حسب تعبير تاريخ البطاركة • بعدها قام البطريرك باعادة عمارتها ... لكن الله اظهر قوته ، فضرب العازر ضربة فى جسده فمرض بمرض الاستقساء (تاريخ البطاركة ٦٢٦ ـ ٦٢٨) •

(خامسا) ثورات الاقبـــاط :

ادرك الاقباط انهم بالغوا فى تفاؤلهم لان الحكومة العربية مهما كانت متسامحة ، لا تستطيع ان تكف عن جباية الضرائب • وزادت خيبة املهم عندما ادركوا ان العرب كمستعمرين جدد كانوا

يريد ون ان ينعموا بثمرة انتصارهم • لذلك لم يلبثوا ان وضعوا نصب اعينهم هدفا واحدا هـو التخلص من حكامهم الجدد والتحرر من رتقتهم • هكذا لم يقف اقباط مصر مكتوفى الايدى ازاء مظالم الخلفاء والولاة ، لكنهم عبروا عن تمردهم بعدة ثورات قاموا بها فى انحاء مختلفة من البلاد خاصة الوجه البحرى • وظلت تلك الثورات تندلع من آن لآخر نحو قرن من الزمان • ولعل اهم هذه الانتفاضات الشعبية كانت سبعة نعرض لها فيما يلى :

(١) فى حكم هشام بن عبد الملك الخليفة الاموى ، وولاية الحر بن يوسف على مصر (٧٢٤ـ٧٢٧م) ونتيجة المظالم الفادحة التى حلت بالاقباط ، جأر الاقباط بالشكوى دون جدوى • وكانت النتيجة ان قام اهل الحوف الشرقى (المنطقة الواقعة شرقى فرع دمياط والصحراء) ، واعتصبوا وتوقفوا عن دفع الاموال • فأرسل الوالى جندا حاربوهم • ولما وجد ان كفة الثوار راجحة ، خرج اليهم بنفسه ورابط فى دمياط لمدة ثلاثة اشهر • وكانت النتيجة ان قتل من الفريقين عدد كبير • وحلت الهزيمة اخيرا بالاقباط لعدم تدربهم على القتال • غير انهم لم يهربوا بل ثبتوا امام اعدائهم حتى ذبحوا عن آخرهم • وكانت النتيجة ان عزل الخليفة الحر بن يوسف ونقل الى امارة اسبانيا •

(٢) وفى الولاية الثانية لحنظلة بن صفوان (٧٣٧ـ٧٤٢ م) ـ وكان عاتيا غشوما ـ اثقل على الشعب ، ولم يكتف بالضرائب المفروضة على الاطيان وعوائد الاملاك والجزية ، بل استحدث ضرائب جديدة على الحيوانات • واساء معاملة الجميع لاسيما الاقباط ، حتى ان اقل جزاء عنده كان قطع يد من لايجده حاملا ايصالا مختوما بختم عليه صورة أسد • هاج اهل الصعيد وقاموا على عمال الخراج واخرجوهم من بلادهم • وحدثت بينهم وبين جند الوالى واقعة عظيمة قتل فيهما عدد كبير من القبط ، وخربوا عدة اديرة ••• وكنت النتيجة ان تقدم الشعب بشكواه الى الخليفة فعزل حنظلة وولى مكانه آخر يدعى حفص بن الوليد •

(٣) وحدث فى ولاية عبد الملك بن موسى والى مصر من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الاموية ، أن حل بالاقباط ظلم كثير ، حتى انه الزم الاقباط بدفع مبالغ طائلة • والزم البطريرك البابا خائيل ٤٦ (٧٤٤ـ٧٦٨) والاساقفة بدفع غرامة لم يكن فى طاقتهم اداؤها • فطلب اليه البطريرك ان يمهله حتى يطوف بالبلاد يجمع المال من رعيته ، فصرح له بذلك • فاتجه البطريرك اولا الى الوجه القبلى فوجد الاقباط فى ضنك شديد بسبب الغرامات الفادحة التى فرضها هذا الوالى

وتشديد رجاله في تحصيلها . لم يدر البطريرك ماذا يفعل ، وصار ينتقل من بلد الى بلد ومن قرية الى اخرى حتى بلغ اقصى الصعيد ...

وقيل ان قرياقص ملك النوبة المسيحي — الذى كانت بلاده تابعة دينيا للكنيسة القبطية — لما علم بما حل بالبطريرك من اهانات واضطهاد ، جمع جيشا وسار به الى مصر ، حتى صار على مقربة من الفسطاط ... فانزعج عبد الملك بن موسى لقلة جنوده ، وما كانت عليه البلاد من الضعف بسبب ظهور العباسيين وحربهم ضد الامويين ، وانشغال مروان بن محمد في هذه الحروب . استدعى الوالى البطريرك ، وابرأ ذمته من المبلغ الذى فرضه عليه ، وطلب اليه ان يتوسط في الصلح بينه وبين ملك النوبة .. فأجابه البابا خائيل الى طلبه ، ومازال بالملك حتى انسحب وعاد الى بلاده .

(٤) وحدث اثناء الصراع بين العباسيين والامويين ان مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين وفد الى مصر هاربا من وجه ابى العباس ، الذى استطاع ان ينتزع كل الولايات التابعة للامويين . وكان قصد مروان — كما ظن — ان يستبقى مصر فى يده ... لكنه لما وصل اليها وجدها فى هياج واضطراب شديدين بسبب ظلم الولاة وعمال الخراج ...

وكان البشموريون — وهم سكان الارض الرملية بأقصى شمال الدلتا ما بين فرعى دمياط ورشيد — قد ثاروا على عمال الخراج وقتلوهم . وكان يقود البشموريين فى ثورتهم قبطى يدعى مينا بن بقيرة ... جرد الوالى عليهم جنده ، لكن الثوار انتصروا عليهم مرتين . كان هذا سببا فى ان مروان حمل عليهم بجنوده ، فقاوموهم وقاتلوهم . لكن البشموريين لعلمهم انهم لايستطيعون الثبات طويلا امام مروان ، تركوا ميدان القتال وتحصنوا فى بلادهم الكثيرة المياة . ولهذا السبب لم يستطع مروان ان يتعقبهم ... استدعى مروان البطريرك القبطى الانبا خائيل ٤٦ ، وطلب اليه ان ينصح البشموريين بالخضوع . فكتب اليهم البطريرك رسالة يحثهم فيها على الخضوع والطاعة لكنهم لم يذعنوا ، واصروا على المقاومة . فظن مروان ان البطريرك يحرضهم سرا على العصيان ، فاستعمل معه العنف والشدة ، وقبض عليه ، وعلى كثير من الاساقفة والقسوس وزج بهم فى السجون ، وهددهم بالقتل اذا استمر البشموريين على المقاومة . فكتب البطريرك والاساقفة رسالة اخرى الى البشموريين ، ابانوا لهم فيها النتائج السيئة التى تعود على الاقباط عموما من جراء شق عصا الطاعة ونصحوهم بالتسليم والاذعان ... وقبل ان تظهر نتيجة هذه الرسالة الثانية وصلت جيوش ابى العباس

واضطر مروان الى ترك الوجه البحرى والفرار الى الصعيد . واخذ جنوده ينهبون اموال القبط ويهدمون الديارات والكنائس ... وكان من نتيجة ذلك ان توقف اهل طما (كانت مدينة عامرة ، ولما تخربت قامت فى موضعها قرية صغيرة تسمى طما العموديين بمحافظة المنيا) عن دفع الخراج ، فأرسل اليهم مروان احد قواد جيشه فقتل كثيرين ، واستباح اموالهم وهدم كنائسهم . ولم يبق منها سوى واحدة ، كانوا التزموا بدفع ثلاثة آلاف دينار نظير بقائها . فلما دفعوا الفى دينار فقط وعجزوا عن دفع الباقى جعل ثلثها جامعا ..

كان القبض على البطريرك الانبا خائيل والمعاملة السيئة التى عامله بها مروان كتكبيله بالحديد بمثابة ايذان بانضمام الاقباط كلهم الى صف العباسيين (او الخرسانيين كما يدعوهم ساويرس بن المقفع) ... يقول الانبا ساويرس " كان بقية النصارى بمصر قالوا للخرسانيين هذا ابونا البطريرك عند مروان الكافر ، وما ندرى مايصنع به . وكان البشامرة قد لقوهم من الفرما ، وقالوا للخرسانيين ان بطركنا عند مروان قد اخذه ليقتله بسبب اننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم وكان حوثرة الكافر عند مروان يقول له هذا البطرك كان يقول (للبشامرة) تقووا فان الله ينزع المملكة من مروان ويسلمها لاعدائه . ومثل هذا كثير . فلما سمع مروان هذا قال ترجمانه للبطريرك وذ ع عن قول مروان ... انت رئيس اعداء مذهبنا ... ثم امر مروان الاعوان الذين يمسكونه ان يمدوا ايديهم بسرعة وينتفوا شعر لحيته من عارضيه ، ورموا شعره فى البحر (البطاركة ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨)

... ويصف تاريخ البطاركة انتصار العباسيين (الخرسانيين) على الامويين ويقول " لاجل ذلك كان الناس يقولون ان يد الرب مع الخرسانيين وكانوا اذا وجدوا قوما عليهم علامة الصليب يخففون عنهم الخراج ، ويرفقون بهم ، ويعملون معهم الخير فى جميع البلاد . وصلبوا مروان منكسا بعد ان قتلوه ... ولما سأل عنا اولئك الملوك مقدمو الخرسانيين ، ومضينا اليهم فيخلون الاب القديس الشهيد انبا ميخائيل واكرموه كرامة عظيمة " (البطاركة ٤٤١) .

(٤) سقطت الدولة الاموية ، وآلت مصر لحكم العباسيين ، وغدت ولاية تابعة للخلافة التى كان مقرها بغداد . كان العباسيون اكثر دراية من عمرو بن العاص ، فقد عرفوا كيف يستعينون باهل البلاد الاصليين ، الذين كانوا على استعداد لمساعدتهم ضد حكام البلاد تخلصا من المظالم الكثيرة لكن كثيرا ما يعيد التاريخ نفسه ، فما لبث العباسيون ان وجدوا انفسهم مضطرين الى فرض

ضرائب باهظة ... يقول تاريخ البطاركة " ولما كان فى ثالث سنة من مملكة الخرسانيين اضعفوا الخراج واكملوه على النصارى ، ولم يوفوا لهم بما وعدوهم " (البطاركة ٤٤٣) ...

تكررت مظالم الولاة واستبدادهم بالناس على نحو ما اتبعه ولاة الامويين ... ففى خلافة ابى جعفر المنصور العباسى ، اوقع واليه على مصر يزيد بن حاتم بن المهلب بن ابى صفرة (٧٦٢-٧٦٩) ببطريرك الاقباط الانبا مينا الاول اضطهادا شديدا . فساء الاقباط ما لحق برئيسهم الدينى وابيهم الروحى . وكان نتيجة ذلك ان ثار الاقباط فى رشيد وسخا وغيرهما من المدن المصرية ، وجاهروا بالعصيان . فارسل اليهم الوالى قوة من الجيش . لكن الثوار الاقباط ردوهم على اعقابهم مهزومين اما الوالى فازاء هزيمته اشتعل غضبه على الاقباط ، واضطهدهم وهدم كنائسهم . فعرض عليه اقباط الفسطاط (مصر القديمة) ان يترك لهم كنائسهم مقابل خمسين الف دينار يدفعونها ، لكنه رفض واصر على هدمها اذلالا لهم وانتقاما من اقباط سخا ورشيد . وبالفعل هدمها .

(٦) فى ولاية الليث بن الفضل (٧٩٩-٨٠٣م) بعث مساحين يمسحون الارض ، وامرهم ان ينتقصوا من القصبة اصابع ، فتظلم اهل الحوف اليه ، فلم يسمع منهم . فتجمهروا قبطا وعربا وساروا الى الفسطاط . فخرج اليهم الليث بجنده وقاتلهم فهزموه . لكنه عاد ولم شمل قواته وهزمهم ، وقتل منهم عددا كبيرا . وقبض على ثمانين من زعمائهم وقطع رؤوسهم ، وحملها الى الفسطاط وعرضها على الناس حتى يلقى الرعب فى نفوسهم ، فكان لهذا العمل اثر فى امتداد الثورة الى معظم بلاد الوجه البحرى ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى ولى الخلافة المأمون فى سنة ٨١٣م .

(٧) فى خلافة الخليفة المأمون العباسى (٨١٣-٨٣٣) ، تفجرت مشاعر المظالم والتحقير والاضطهاد التى ظلت مكبوتة لسنوات عديدة فى نفوس الاقباط . فقد امتنع اقباط الوجه البحرى عن دفع الخراج ، وشاركهم فى ذلك العرب . وقامت بينهم وبين الولاة حروب متفرقة قتل فيها كثيرون ... وازاء هذه الحالة الخطيرة التى لم يسبق لها مثيل — فقد كانت اكثر الثورات عنفا — ونظرا لانشغال المأمون بمحاربة الروم ، بعث برسائل على يد مندوبين لاهل مصر ان يخلدوا للهدوء ، لكنها لم تجد نفعا .

فما ان انتهى من حربه مع الروم حتى قصد مصر ، وكان واليها فى ذلك الوقت هو عيسى بن منصور (٨٣١-٨٣٢ م) ، فعاتبه بشدة ناسبا اليه كل ما حدث من هياج الناس نتيجة المظالم

الكثيرة • وبلغ الامر ان المأمون امر بتجريد الوالى من ملابسه الخارجية علامة على التحقير •

يقول مؤرخو المسلمين ان الخليفة المأمون لما كان فى مصر ورأى ثورة اقباط الوجه البحرى ، حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وسبى اطفالهم • لكن يبدو ان هذا الكلام هو تلخيص للنتيجة النهائية ••• اما مؤرخو القبط فيقولون انه لما وصل المأمون الى مصر ذهب اليه البطريرك يوساب ٥٢ (٨٣٠ _ ٨٤٩ م) ، فاستقبله الخليفة استقبالا حسنا ، وطلب اليه ان ينصح اقباط الوجه البحرى ويحذرهم بأن يكتب لهم منشورا يدعوهم فيه الى الطاعة حقنا لدمائهم ووعده بأن ينظر بنفسه فى راحتهم •

وكتب البطريرك المنشور فأطاع الناس واذعنوا الا اهل البشمور ، الذين رفضوا الاستسلام والخضوع ، وابوا الا المقاومة ••• فلما علم المأمون بما وصل اليه الامر ، حمل عليهم بجنوده فشتت شملهم ودخل بلادهم ، وقتل رجالهم وسبى نساءهم واطفالهم ، وسلب اموالهم وهدم كنائسهم امعانا فى اذلالهم • وبالجملة فان المأمون لم يبرح اراضيهم الا بعد ان خرب ديارهم وجعل بلادهم اطلالا ••• ومكث المأمون فى مصر نحو شهرين طاف خلالها بانحاء البلاد يسكن خواطر الشعب فسامحهم بما تبقى عليهم من اموال ••• كانت هذه الثورة هى آخر ما قام به الاقباط من ثورات ، وكانت فى نفس الوقت اعظمها •••

وعلى الرغم ان البطريرك يوساب عمل جاهدا على اقناع البشموريين على الاذعان والخضوع ، لكن كاتب سير البطاركة يصف الحالة المهينة التى وصلوا اليها ، مما يبعث على الاعتقاد انه يبرر مسلكهم الثورى ، يقول بعد ان يصف ثقل يد عمال الخراج وموجة الغلاء التى عمت البلاد "فمات بالجوع خلق كثير من النساء والاطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن جميع الناس مالايحصى عدده من شدة الجوع • وكان متولى الخراج يؤذى الناس فى كل مكان • واكثر النصارى البشموريين كانوا يعذبونهم بعذاب شديد مثل بنى اسرائيل الى ان باعوا اولادهم فى الخراج من كثرة العذاب لانهم كانوا يربطونهم فى الطواحين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب ••• فلما نظر اهل البشموريين ان ليس لهم موضع يخرجون منه ، وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكثرة الوحلات فيه وما يعرف طرقه الا هم • فبدأوا ينافقوا ويمتنعوا ان يدفعوا خراجا ، واتفقوا وتآمروا على ذلك وكان الملك فى ذلك الوقت عبد الله المأمون ابن هارون الرشيد " (تاريخ البطاركة ٦٠٠ ، ٦٠١) •

ومما يلاحظ على ثورات الاقباط التى استمرت نحو قرن من الزمان — لاسيما فى منطقة الدلتا — انها كان يعوزها التنظيم والتكتيك والقيادة الموحدة ، لذلك كان يقضى عليها سريعا ... لم يعرف الاقباط كيف يوحدون صفوفهم ويتخذون لهم قيادة قوية حكيمة . ويبدو ان هدف هذه الثورات الرئيسى كان رفع المظالم المالية التى اثقلت كواهلهم . بالاضافة الى الاعتراض على نواحى وانواع الاضطهادات الاخرى كالتحقير الادبى ومايمس العقيدة الدينية ...

ويذكر المؤرخ المقريزى ان المسلمين بعد ثورة البشموريين اصبحوا يؤلفون غالبية فى بلاد مصر خاصة فى الوجه البحرى ، بعد ان اعتنق الاسلام عدد كبير من الاقباط نتيجة كل هذه الضغوط المروعة . لكن يبدو ان كلام المقريزى مبالغ فيه جدا .

محنة اللغة القبطية

=================

اللغة القبطية هى اللهجة الدارجة للغة المصرية القديمة فى آخر مراحلها (الديموطيقية) مكتوبة بحروف يونانية ،بعد اضافة سبعة حروف يونانية تمثل الاصوات التى ليس لها مقابل فى اللغة اليونانية ... ومن غزوة الاسكندر الاكبر لمصر فى الثلث الاخير من القرن الرابع قبل الميلاد ، غدت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية ، وظلت كذلك الى مابعد الفتح العربى لمصر سنة ٦٤٠ م .

كانت اليونانية هى لغة الثقافة فى العالم كله وقتذاك . وكانت هى اللغة المستعملة فى مدرسة الاسكندرية الذائعة الصيت . على ان اللغة القبطية ظلت اللغة السائدة بين المصريين الوطنيين (الاقباط) فى انحاء القطر المصرى . وظلت القبطية لغة رسمية فى الدواوين حتى بعد الفتح العربى لمصر .

فى خلافة الوليد بن عبد الملك الاموى ، وولاية واليه على مصر عبد الله بن عبد الملك فى سنة ٧٠٥ او ٧٠٦ م (= ٨٧ هـ) اعلنت اللغة العربية لغة رسمية فى البلاد المصرية بدلا من اللغة القبطية ... كان الوالى عبد الله بن عبد الملك يكره النصارى جدا ، فاشتد عليهم وعمل على نزع الكتابة فى الدواوين من من ايديهم ، ونقلها الى العربية ... وكانت اللغة القبطية حتى ذلك الوقت هى اللغة المستخدمة فى دواوين الدولة ، وكان الاقباط هم القائمون بسائر الاعمال الادارية والحسابية فى دواوين الدولة تحت اشراف رئيس منهم يدعى اثناس او كان قبلها امينا على بيت المال

فعزله الوالى عبد الله بن عبد الملك وولى مكانه شخصا يسمى بن يربوع الفزارى من حمص ...

ولما رأى القبط ان هذا التغيير فى لغة الدواوين يفقدهم وضعهم فى الدولة ، عولوا على تعلم اللغة العربية فظهر ما عرف باسم السلالم ، وهى كتب تحوى الكلمات العربية مكتوبة بحروف قبطية ، على مثال الكتب التى توضع حاليا للاجانب لتعلم اللغة العربية او العكس ، كما نقلت اسماء البلاد الى العربية فتحرفت عن اصلها ....

تقول دكتورة سيدة كاشف فى كتابها مصر فى عصر الولاة من ١١٩ ، ١٢٠ " بدأ العرب بعد فتح مصر بأقل من نصف قرن يتجهون الى تعريب البلاد ، والى جعل اللغة العربية لغة رسمية ، وذلك لعدم معرفتهم باللغة القبطية . بل اننا نرى الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى كان يلى كثيرا من امور مصر فى ولاية ابيه (٦٥ — ٨٦هـ) ، يأمر بترجمة الانجيل وعدة كتب دينية مسيحية اخرى الى اللغة العربية ، وذلك ليعرف المسلمون اذا كان فى هذه الكتب ما يمس الدين الاسلامى بسوء ، وقد حدث فعلا ان عربت دواوين الدولة الاسلامية فى ذلك الحين ، اذ كانت الدواوين فى البلاد المفتوحة حتى مجئ عبد الملك بن مروان تكتب بلغات البلاد المحلية ، فكانت تكتب باليونانية فى الشام ، وبالبهلوية فى العراق والامصار الشرقية ، بالقبطية واليونانية فى مصر . وكان ذلك طبيعيا لقلة خبرة العرب بأمور الادارة ، ولان الكتابة فن خاص . ولكن توسع خبرة العرب واستقرار الدولة واتجاهها نحو الوحدة المركزية ادى الى وجوب التعديل ، فضلا عن السياسة العربية التى سار عليها بنو امية ... وقد شرع فى هذا التعريب ايام عبد الملك بن مروان ، وبدئ بتعريب دواوين الشام والعراق . وكان الحجاج بن يوسف الثقفى صاحب اليد الطولى فى الاخذ بهذا التعريب فى العراق وما يتبعها شرقا . اما فى مصر فقد بدئ فى تعريب دواوينها فى خلافة الوليد بن عبد الملك وذلك فى سنة ٧٠٦ م (= ٨٧ هـ) فى ولاية عبد الله بن عبد الملك ... وهكذا اصبحت الدولة من الناحية السياسية عربية بمعنى اكمل . وقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الموالى والاقباط ، فاصبحت اللغة العربية لغة الدواوين . كما بدأت تظهر طبقة الكتاب ، كذلك اصبحت اللغة العربية لغة الادارة ، فضلا على انها لغة الثقافة ، بالاضافة الى كونها لغة السياسة والدين " .

ومالبثت اللغة القبطية ان تلقت ضربة قاصمة على يد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ـ ١٠٢١ م) ، الذى اصدر اوامر مشددة بابطال استخدامها نهائيا فى المنازل والطرقات العامة ايضا ، ومعاقبة كل من يستعملها بقطع لسانه ٠٠ كما ضيق على الاولاد والبنات والسيدات بالبيوت ، بالامر بقطع لسان كل سيدة تتكلم بها مع اولادها واطفالها ٠ واقتدى بالحاكم الطاغية فى محاربة اللغة القبطية كثيرون ممن جاءوا بعده ٠ وهكذا باتت اللغة القبطية محصورة داخل جدران الكنائس والاديرة ٠٠٠

وقد اتت ايام اشتد فيها الرعب على الكنيسة ، فاضطر الاباء الى وضع ستائر على احجبة الهياكل وقت التقديس واجراء الخدمة الالهية ، خوفا من الحكام الغاشمين الذين كانوا اذا سمعوا الصلاة باللغة القبطية ، يهجمون على الكنائس ويفتكون بالذين فيها بدون شفقة ولا رحمة ٠

كان البطريرك غبريال بن تريك (١١٣١ ـ ١١٤٦ م) هو اول من صرح بقراءة الاناجيل والخطب وما اليها باللغة العربية فى الكنائس ، وذلك بعد تلاوتها باللغة القبطية ٠

ومما يدل على ان اللغة العربية بدأت تناهض اللغة القبطية فى القرن التاسع ، تلك الرؤيا المنسوبة خطأ لانبا صموئيل القلمونى ، والتى يرجع الى انها ترجع الى القرن العاشر ٠ وهى تحتوى على حث مؤثر على الاهتمام باللغة القبطية ٠ ومنها نعرف ان اللغة العربية بدأت تحل محل القبطية حتى فى جهات كثيرة بالوجه القبلى ٠٠٠ وظل نجاح اللغة العربية مطردا ، حتى انه فى القرن الثالث عشر كانت اللغة العربية هى السائدة ، واخذ علماء الاقباط يصيغون مؤلفاتهم بالعربية ٠ ومن امثلتهم اولاد العسال الذين وضعوا مؤلفات دينية ولغوية كثيرة ٠ ومنهم ايضا جرجس بن العميد المعروف بابن المكين وابو شاكر بن الراهب شماس الكنيسة المعلقة وشمس الرئاسة ابو البركات بن كبر والقس بطرس السدمنتى وعلم الرئاسة بن كاتب قيصر ٠ ولهذا فقد عمد هؤلاء العلماء الى وضع قواعد مختصرة للغة وتدوين مفرداتها لحفظها من الضياع والاندثار ٠

واول من الف كتابا باللغة العربية من الاقباط هو ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين الذى كان معاصر للبطريرك افرام بن زرعة السريانى ٦٢ (٩٧٥ ـ ٩٧٩ م) ٠ وهو الذى ترجم سير الاباء البطاركة مما وجده من مخطوطات بدير الانبا مقار ودير نهيا ، وما وجده بحوزة

بعض النصارى باللغة القبطية واليونانية الى اللغة العربية التى كانت شائعة آنئذ . وساعده فى تصحيح وتنقيح العبارات العربية الواضح بولس بن رجاء الوارد خبره فى سيرة انبا فيلوثاوس البطريرك ٦٣ (٩٧٨ _ ١٠٠٣ م) .

وعلى الرغم من انتشار العربية فان اللغة القبطية بقيت لغة التخاطب فى الوجه القبلى حتى القرن السابع عشر . ويقول العلامة ماسبيرو فى محاضرة له عن " صلة المصريين الاقدمين بالمصريين الحاليين " القاها سنة ١٩٠٨ " من المؤكد ان سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الاولى من القرن السادس عشر ، فى اوائل حكم الاتراك" ... وقال المقريزى من القرن الخامس عشر فى كلامه عن دير موشه " والاغلب على نصارى هذه الاديرة معرفة القبطى الصعيدى ... ونساء نصارى الصعيد واولادهم لا يكادون يتكلمون الا القبطية الصعيدية " .

وفى القرن الثامن عشر لما قاربت اللغة القبطية على الزوال _ كلغة للتخاطب ، بدأ الاقباط يكتبونها بحروف عربية ... لكنها ومع كل هذه الظروف بقيت لغة الكنيسة .

نزوح العرب الى مصر :

عرفنا فيما سبق ان عمرو بن العاص وفد الى مصر على رأس جيش عربى قوامه اربعة آلاف مقاتل . وقد ارسل عمر بن الخطاب اربعة الاف اخرى كمدد . وقد قتل بعض هؤلاء الجنود اثناء الحملة على مصر ... معنى ذلك ان العرب الفاتحين كانوا اقلية ضئيلة جدا اذا ماقورنوا بعدد سكان مصر من الاقباط وغيرهم فى ذلك الوقت ... لم يختلط هؤلاء العرب الفاتحين بسكان البلاد الاصليين ، وانما اختطوا لهم مدينة عربية اسلامية فى وسط المحيط المصرى القبطى هى مدينة الفسطاط الواقعة شمالى حصن بابليون بمصر القديمة مابين النيل والجبل المقطم (المرجح ان اسم الفسطاط غير عربى وانه مشتق من لفظ يونانى فساطون الذى بدوره مشتق من اللفظ .. اللاتينى فسّاتم الذى كان يطلقه الرومان على معسكراتهم الحربية — مصر فى عصر الولاة ص ٢٣٣) — وكان تخطيط المدن من اهم الظواهر التى سارت

جنبا الى جنب مع الفتوحات العربية .

ولما اختط العرب مدينة الفسطاط في سنة ٦٤١ م (= ٢١ هـ) قسمت الى خطط اى اقسام وسكنت كل قبيلة خطة من الخطط . وبالاضافة الى الفسطاط فقد اختط العرب مدينة الجيزة على غرار الفسطاط . ونزل قوم من العرب الاسكندرية . وهكذا فان العرب الذين استقروا في مصر كانوا يقيمون في الفسطاط او الجيزة او الاسكندرية . وقد حرم عليهم عمر بن الخطاب الاشتغال بالزراعة او امتلاك الارض ، حتى يكون كل همهم منصرفا الى السياسة والحكم والحرب . لذا لم يختلط العرب باقباط مصر في البداية ، ولم يكن لهم تأثير يذكر على الاقباط ، سواء من ناحية انتشار الدين الاسلامي او اللغة العربية .

كان استيلاء العرب على مصر فاتحة لهجرات عربية متوالية دامت زمنا طويلا . ولعل اقل هذه الهجرات ، هجرة العرب او الجند الذين اتوا مع عمرو بن العاص لفتح مصر . على ان اغلب الذين حكموا مصر في عصر الولاة كانوا يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية العهد الاموي (٧٥٠م) او عربية ومن شعوب اخرى من غير العرب ، كالخرسانيين والتراك في العصر العباسي . والمعروف ان الجنود كانوا يصحبون معهم اسراتهم .

وفي خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ ـ ٧٤٤ م) حدث تطور في هجرة القبائل العربية الى مصر . لقد سأل عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج على مصر سنة ٧٢٨ م ان ينقل الى مصر بيوتا من قيس اى عرب الشمال ، فاذن له الخليفة بذلك . وجاء بن الحبحاب لعدد كبير بلغ حوالي ثلاثة آلاف . وقد انزلهم بالحوف الشرقي اى شرقي الدلتا وامرهم بالاشتغال بالزراعة .

معنى ذلك ان العرب في زمان هشام بن عبد الملك اخذوا يتخلون عن السياسة التي اتبعوها منذ الفتح ، وهي سياسة الترفع عن الاختلاط بالاهالي وعن الاشتغال بالزراعة ... وقد ساعد وجود العرب في القرى المصرية واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالاهالي . وكان لهذا الاختلاط اثره في انتشار الاسلام بمصر نتيجة التزاوج والجوار والمصاهرة . لذا يقول المقريزي في كتابه الخطط " ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما انزل عبيد الله بن

الحجاب مولى سلول قيساً بالحوف الشرقى . فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها " .

كلمة حق يجب ان تقال :

عرضنا فيما سبق لانواع من المضايقات التى تعرضت لها الكنيسة القبطية وابناؤها ، من رجال دين وعلمانيين ، فى ظل حكم الولاة المسلمين ... واحقاقا للحق وللتاريخ ، نقول ان المضايقات التى تعرضت لها الكنيسة القبطية ، لم تكن جميعها بسبب العامل الدينى ... لكن حدث فى بعض الاحيان ان المسيحيين انفسهم كانوا هم مصدر او سبب هذه المتاعب والمضايقات ، سواء كانوا من رجال الدين او العلمانيين ... ونسوق بعض الامثلة :

+ البابا سيمون الاول البطريرك ٤٢ (٦٨٩ ــ ٧٠١ م) :

كان على جانب كبير من التقوى والتقشف . كان ناسكا لا يأكل اللحوم . وكان حريصا على اتمام قانون عبادته الخاص كما كان يفعل زمن الرهبنة قبل البطريركية ... كان يوبخ الكهنة على حياة التساهل مع النفس والافراط وعدم النسك . وكانت النتيجة ان بعض الكهنة بالاسكندرية ضجروا من توبيخه وصرامته ، ودس اربعة من الكهنة له سما فى الاناء الذى كان يشرب منه . وكان بعض السحرة قد اعدوا هذا السم ... وحدث ان البطريرك شرب من الماء الموضوع به السم عقب تناوله من الاسرار المقدسة فلم يصبه اذى .. وتكرر الامر مرة ثانية ولم يصبه اذى . اما فى المرة الثالثة فقد اعد السحرة سما اقوى من الاول والثانى وامروا ان يضعوه للبطريرك فى طعام يتناوله على الريق وضعوا السم فى تين وجدوه فى غير اوانه وظلوا يلحوا عليه حتى يأكل . فما ان اكل منه حتى تحركت عليه احشاؤه ، ولزم الفراش مدة اربعين يوما . حتى يئس الناس من شفائه . لكن الرب اقامه معافى . وحدث ان الوالى وفد الى الاسكندرية ، ورأى البطريرك فى صحة هزيلة . ولما علم السبب وهو موضوع دس السم له ، حتى امر بحرق الاربعة كهنة احياء مع السحرة الذين ركبوا السم ... وفى وقت تنفيذ الحكم ، ركع البابا امام الوالى وبكى بدموع غزيرة ، طالبا العفو عن الكهنة قائلا " ان نالهم شيئا من اجلى ، وجب على القتل ، ولا يصح لى ان اكون بعد ذلك بطريركا " ... فتعجب الوالى وعفا عن الكهنة ، اما السحرة فاحرقهم ليكونوا عبرة لغيرهم (تاريخ البطاركة ٢٨٦ ، ٢٨٧)

+ البابا الكسندروس الثانى البطريرك ٤٣ (٧٠٥ — ٧٣٠ م) :

وجد فى زمانه شماس راهب يدعى بنيامين ... هذا تصادق مع ابن والى مصر فى ذلك الوقت ، وتوطدت الصداقة بينهما جدا ، حتى وثق به اكثر من كل اصحابه . وكان هذا الراهب الشماس يظهر له اسرار النصارى ، حتى ان تاريخ البطاركة يقول عنه " وكان بنيامين الشماس الراهب اشد على النصارى من كل احد ويهيجه على كل بلاء . واضطر جماعة الى ان اسلموا ومن جملتهم بطرس والى الصعيد ، واخوه تاودرا ، وولد تاوفانس مقدم مريوط ، وجماعة كهنة وعلمانيين لايحصون من كثرتهم " (تاريخ البطاركة ٣٠٥ ، ٣٠٦) .

اضف الى هذا بعد ان بعض الاهانات التى نالت هذا البابا الكسندروس الثانى ، على يد والى مصر قرة بن شريك (٧٠٩ — ٧١٤ م) ، كانت نتيجة وشاية شخص يدعى تاوضروس متولى ديوان الاسكندرية ، الذى كان يضمر للبطريرك عداوة كبيرة ، حتى ان قرة بن شريك قال للبطريرك — بعد ان فرض عليه مبلغا كبيرا من المال ، وبعد ان اوغر تاوضروس صدره ضد البطريرك " ولو انك تبيع لحمك ، لابد من ثلاثة آلاف دينار ، والا فما تخلص من يدى " . (تاريخ البطاركة ٣١١ ، ٣١٢) .

+ البابا مينا الاول البطريرك ٤٧ (٧٦٧ — ٧٧٤ م) :

لحقته متاعب كثيرة بسبب شماس راهب يدعى بطرس ، كانت تتملك عليه شهوة الاسقفية ... فلما رفض البابا مينا رسامته لعدم استحقاقه ، لم يطق وسافر الى بلاد الشام حاملا معه رسائل مزورة كتبها صادرة من البابا مينا الى الانبا جرجه بطريرك انطاكيا واساقفته . وفيها يقول ان الكنيسة فى مصر تعانى من تعب عظيم واضطهاد وشدة من الولاة ... فانفذ بطريرك انطاكية مبلغا من المال وحرر لمطارنة الكنيسة السريانية ان يجمعوا لهذا الراهب الشماس مالا ... ولما جمع قدرا كبيرا من المال قصد بغداد حيث مقر الخلافة . واخذ بمكر ينفق المال عن سعة على حاشية الخليفة تقربا اليهم . وكان يقول لهم ان بطريرك الاقباط يمكنه ان يحصل على الذهب بالكيمياء ، ولذلك فان كنائسه مملوءة بأوانى الذهب ... وظل على هذا النحو حتى تمكن من الوصول الى الخليفة العباسى المنصور ... تملق قلب الخليفة بهذا الشماس لانه كان يشبه

ابنا له توفى ، وابدى استعداده ان يعطيه مايريد • فطلب الشماس المسكين ان ينفذه الى مصر ومعه كتابا الى واليه ان يصير بطريركا على الكنيسة القبطية وان يمنحه السلطان على البطريرك مينا وكل اساقفته ••• وبالفعل حرر الخليفة لواليه على مصر عبد الله بن عبد الرحمن (٧٦٩ — ٧٧٢ م) ، الذى استحضر البطريرك مينا واعلمه بمضمون رسالة الخليفة • وكان الشماس بطرس حاضرا ، • فلما رفض الانبا مينا تنفيذ امر الخليفة ، لانه يتعارض مع قوانين الكنيسة ، اخذ بطرس يوغر صدر الوالى ••• اخيرا سأل الانبا مينا الوالى ان يمهله اياما حتى يجتمع بالاباء الاساقفة ويقرروا مايتبع • لكن الشماس بطرس طلب الى الوالى ان يعتقل البطريرك حتى يتمكن من دخول الكنائس كعادة البطاركة ••• اعتقل الوالى البطريرك ومعه تلوضوروس اسقف مصر ••• وارسل الشماس بطرس — البطريرك المزيف — الى جميع الاساقفة ليجتمع بهم ••• وفى نفس الوقت حرر الانبا مينا للاساقفة رسالة فيها يشددهم ويقويهم ••• أجتمع الاساقفة فى الفسطاط ••• واذ رأى الاساقفة بطرس يصعد الهيكل ليصلى صلاة الشكر كعادة البطاركة ، حتى وثب عليه الانبا مينا اسقف صنبو والانبا مويسيس اسقف اوسيم ، وامسكوا قلنسوته — وكان قد كتب عليها بالخط العربى " بطرس بطرك مصر " والى جانب اسمه اسم الخليفة المنصور — وقالا له " واتستحق بيع مصر ان تتنجس بك " ••• فامتلأ غضبا وامر رجال الوالى ان يمضوا بجميع الاساقفة الى الحبس ••• هناك اجتمع البطريرك فى الحبس مع بعض الاساقفة ، واخذ يعزيهم بالقول " يا احبائى ان الذى يقاتل عنا اعظم ممن يقاتلونا والرب ينجينا من اعدائنا ••• " ثم ان الوالى اخرج البطريرك ومن معه من الحبس ، وطلب اوانى الكنيسة الذهب حسب وشاية بطرس ••• على الرغم من كل ذلك ، فان الوالى بطبعه كان يحب المسيحيين • فلما احس بطرس بتعاطفه مع الانبا مينا اخذ يهدد الوالى بالذهاب الى الخليفة ورفع شكواه اليه لعدم تنفيذ اوامره ••• وما ان سمع الوالى هذا التهديد حتى انقلب على بطرس ووضعه فى السجن • وظل فيه مدة ثلاث سنوات حتى عزل من ولاية مصر وارسل آخر مكانه ، الذى لما استمع الى قصة بطرس ، انفذه ثانية الى الخليفة ••• ولم يصل بطرس الى شىء ، وكل ما انتهى اليه انه انكر ايمانه المسيحى واعتنق الاسلام (تاريخ البطاركة ٤٧٦ — ٤٩٣) •

* البابا يوساب البطريرك ٥٢ (٨٣٠ ـ ٨٤٩ م) :

اضطر بحكم مجمع الاساقفة ان يقطع اسحق اسقف تانيس ، وتادرس اسقف مصلا ، بعد ان نسب اليهما شعباهما ، كلاما رديئا ، وهددوا بالخروج عن الايمان الارثوذكسى ان لم يسحبهما البطريرك من ايباراشيتهما ... انتهز الاسقفان المقطوعان فرصة تجمع عدد كبير جدا من الشعب فى كنيسة العذراء بقصر الشمع يوم احد الشعانين ، ـ وكان قد رسم فى نفس اليوم ارخن يدعى اسحق شماسا ، وكان مرشحا للبطريركية قبل البابا يوساب ـ ذهبا الاسقفان المقطوعان الى الافشين قائد الجيش ـ وكانت ثورة البشموريين قد اخمدت بصعوبة منذ فترة قليلة ـ ووشيا اليه بأن البطريرك يوساب هو الذى حرض البشموريين على العصيان ، وانه مجتمع بجمهرة كبيرة من شعبه الذى لايعصون له امرا ، وانه يدبر موءامرة لقتله .. كان الافشين مخمورا حينما سمع هذا الكلام ، فثار ثورة عارمة وانفذ اخاه ومعه عدد كبير من الجند الى الكنيسة التى قيل ان البطريرك موجود فيها ليحضره حتى مايقتله ... وكان يتقدم هوءلاء الموفدين من قبل الافشين اسحق اسقف تانيس المقطوع ، ودخل الهيكل ، وبايماءة من اصبعه ارشدهم الى البطريرك لكى يعرفوه فجرد اخو الافشين سيفه ليأخذ رأس البطريرك ، لكن يده مالت فاصطدم السيف بعمود رخام وانكسر ، فازداد هياجا . وكان يحمل فى وسطه سكين ، فاستلها من وسطه وطعن بها البطريرك فى جنبه . لكن يد الله تدخلت ايضا . فكل ما فعله السكين انها مزقت ثيابه وانتهت الى المنطقة الجلد فقطعتها ، لكنه لم يصب بسوء ... حصل هرج ومرج بين الشعب . وظن ان البطريرك قد مات ... فلما نظر اخو الافشين هذه الاعجوبة ، اخذه ليمضى به الى اخيه كما امره ... وفيما هم يجذبون البطريرك ليخرجوه والشعب متعلق به ، قال لهم لاتمسكونى ، فما نحن مقاومون للسلطان ... فخرج البطريرك والشعب يتبعه باكين ، وكان الناس يطرحون انفسهم على يديه ورجليه ظانين انه مساق للقتل ... فلما نظر اخو الافشين تعلق الشعب به غضب جدا وضربه بمقرعة على رأسه ، فانجرحت عيناه ... ولما مثل الانبا يوساب امام الافشين شرح له حقيقة الامر بالنسبة للبشموريين ، وحقيقة امر الاسقفين المقطوعين ، الذين ضللاه بمعلومات كاذبة . وكيف ان الغيظ يأكل ضد ريهما بسبب قطعهما من الكنيسة . ولما وجد البطريرك يوساب ان الافشين تعبأت مشاعره ضد الاسقفين ، بعد ان اتضحت له الحقيقة ، وانه عزم على الانتقام منهما ، قال

للانشين متوسلا " مذهبى يأمرنى بفعل الخير مع من يعمل معى الشر ، والذى سميا به هذا ن قد طرح الله فى قلبت الصحيح ، نأسالك أن نفعل معهما خيرا برئاستك واتركهما كرامة للـــه" ... تعجب الافشين من هذة السماحة واطلق الاسقفين (تاريخ البطاركة ٦٠٤ ـ ٦١٥) .

* حدث ايضا فى زمان البابا يوساب البطريرك ٥٢ ان شخصا اسمه تاوضروس اشتهى ان يرسم اسقفا على اوسيم بغير رضا الشعب ، فامتنع البطريرك عن رسامته ، وكان والى مصر فى ذلك الوقت هو على بن يحيى الارمنى (٨٤١ ـ ٨٤٣ م) فى خلافة المعتصم الخليفة العباســـى ... فلما رفض البطريرك رسامة تاوضروس ، وكانت شهوة الاسقفية تحتمل فى قلبه ، لجأ الى الوالـــى ليرغم الاب البطريرك على رسامته اسقفا ... ولما سأل الوالى البطريرك فى رسامة تاوضروس المذكور اسقفا ، رفض البطريرك ، مما سبب حنق الوالى ... فبدأ بهدم الكنائس مبتدئا بكنيسة المعلقـة بمصر القديمة ، التى هدم اعلاها ... واخيرا تحت ضغوط الاراخنة الاقباط ـ وحتى لا يتسبب تشدده فى هدم كثير من الكنائس ـ قبل البطريرك رسامة المذكور بعد ان اشهد الله عليه ، وفرض الوالى على الانبا يوساب غرامة ثلاثة آلاف دينار ، دفعها عنه الاراخنة بالتقسيط ، لكن اللــه العادل لم يدع هذا الوالى المتجبر يفلت من انتقامه ، فقد قتل بيد الروم حينما انفذه الخليفـة على رأس حملة لغزو بلادهم (تاريخ البطاركة ٦٣٣ ـ ٦٣٦) .

* وفى زمان البطريرك يوساب ٥٢ ايضا ، كان هناك قاض بمصر اسمه محمد بن عبد الله ، وكان رجلا متجبرا ، عارفا بأصول الفقه والشرع ، لكن سيرته كانت مذمومة ، فقد كان مولعا بالخمـر والنساء ... كان اسقف مصر ويدعى بنا قد طلب من الانبا يوساب البطريرك ان يقدمه على بقية الاساقفة ، لكن البطريرك رفض ، فاحتال للوصول الى غرضه بالتقرب الى القاضى المذكور .. استدعى القاضى البابا البطريرك فى احد الايام ، وكان حاضرا عنده بعض الاساقفة ممن يناصرون هذا الاسقف المتكبر ... فما ان دخل البطريرك الى حيث كان القاضى ، حتى ابتدره بالقـول " من جعل لك السلطان ان تكون رئيسا على جميع النصارى ؟ " اجاب البطريرك " اللــه " . ثم التفت القاضى الى الاساقفة المجتمعين ومعهم اسقف مصر المخدوع ، وقال لهم " لا تسمعــوا من هذا البطريرك من اليوم ولا تسموه ابا ، بل اجعلوا لكم هذا ابا (يعنى بنا اسقف مصـر)

ويكون مقدمكم " ... فأجاب الاساقفة القاضى بما يفيد استحسانهم لقوله . وكان ذلك باتفاق مسبق مع القاضى مقابل مبلغ من المال كرشوة ... فخاطب البطريرك الاساقفة باللغة القبطية ووبخهم على ضلالهم ... وكان بحضرفقهاء المسلمين ممن يعرفون القبطية حاضرين ، فترجموا للقاضى كلام البطريرك . وحينئذ غضب القاضى اذ كيف لايطاع امره ... اما البطريرك فقال له فى هدوء انه لايقدر ان يقاوم الله والخليفة ، حيث كان تحت يد البطريرك رسائل من عدة خلفاء بأن له سلطانا على كل شعبه المسيحى ورعيته فى مصر ... وما ان اطلع القاضى على هذة المكاتبات حتى امتقع وجهه ولزم الصمت فى خزى (تاريخ البطاركة ٦٣٧ ـ ٦٤١) .

" قديسو الكنيسة وعلماؤ ها واراخنتها "

" فى عصر الولاة "

ما اغنى الكنيسة القبطية بقديسيها وعلمائها فى كل الاجيال . انه من المستحيل ان يحصى الانسان كل القديسين فى فترة تمتد نحو قرنين وربع من الزمان هو ما اصطلح على تسميته بعصر الولاة . لكننا نقدم بعض النماذج :

البابا بنيامين الاول البطريرك ٣٨ (٦٢٣ ـ ٦٦٢ م) :

ولد فى قرية بيرشوط (كفر مساعد مركز ايتاى البارود ـ محافظة البحيرة) ، وانحدر من اسرة واسعة الثراء . مال منذ صباه لحياة الرهبنة ، وترهب بدير كانوبوس .. ر بجهة ابو قير الحالية ... اعلن له فى رؤيا انه سيرعى قطيع المسيح . ومنذ ذلك الوقت اخذت العناية الالهية تعده لهذة المهمة الخطيرة . قربه اليه البابا اندرونيكوس ٣٧ ، ورسمه قسا ليخدم معه ، وصار مساعدا له ... وعندما احس بقرب انتقاله ، اوصى به ليكون خليفته على كرسى مارمرقس . وتتميز حياة البابا بنيامين الرعوية بثلاث مراحل متباينة :

المرحلة الاولى : وتمتد منذ رسامته اوائل سنة ٦٢٣ حتى اختفائه سنة ٦٣١ .

وقد تميزت هذة الفترة بالنسبة لهذا البابا انه عاصر الخمس سنوات الاخيرة من الحكم الفارسى لمصر ـ وكانت فترة هدوء نسبى ، تام خلالها بجولة رعوية زار خلالها منطقة حصن بابليون بمصر القديمة ، وارسل منشورا رعويا للاباء الاساقفة بالتدقيق مع الكهنة خاصة حديثى السن منهم ، كما

قام بعزل المتهاونين روحيا من بينهم ...

ولما عاد الحكم الرومانى الى مصر ثانية بعد انسحاب الفرس منها نعم هذا البابا بثلاث سنوات من الهدوء ، لانشغال الدولة البيزنطية وعلى رأسها الامبراطور هرقل بتصفية مشاكل ما بعد الحرب مع الفرس .

المرحلة الثانية وتمتد من سنة ٦٣١ الى سنة ٦٤٤ :

وفيها اختفى البابا بنيامين ، وظل مختفيا حتى اصدر عمرو بن العاص خطاب امان له ... وتتميز هذه الفترة بالتمزق والنقسام الذى حدث نتيجة سياسة الامبراطور ومحاولته فرض عقيدة جديدة للشعوب التى يحكمها بالقوة ، وتنصيب المقوقس بطريركا ملكانيا وحاكما زمنيا فى نفس الوقت على النحو الذى درسناه فيما سبق .

ويقال ان الرب كشف للبابا بنيامين الاحداث التى كانت عتيدة ان تحدث وامره ان يختفى هو وجميع الاساقفة ، ليرعوا كنائسهم وشعبهم من مخابئهم . وفعلا كتب للاباء الاساقفة بما يفيد ذلك موصيا شعبه بالتمسك بالعقيدة القويمة حتى الموت ... وقد خرج البابا بنيامين مختفيا مارا بأديرة وادى النطرون ومنها الى الصعيد . وظل مختبئا بأحد اديرة الصعيد لمدة ثلاثة عشر عاما ... وبينما كان هذا البابا فى مخبئه ، غزا العرب مصر واحتلوها .

المرحلة الثالثة وتمتد من سنة ٦٤٤ الى سنة نياحته سنة ٦٦٢ :

وفيها شهدت مصر الحكم العربى ... وعاد البابا بنيامين الى نشاطه الرعوى بعد اختفاء لمدة ثلاثة عشر عاما . خاصة بعد التعاطف الذى اظهره القائد العربى عمرو بن العاص على الاقباط والنعمة التى اعطيت للبابا فى عينيه حتى ان عمرو اعطى للبابا بنيامين سلطانا على جميع رجال الكنيسة فى مصر ليدبر احوالهم ، كالبطريرك والرئيس الشرعى للكنيسة فى كل اقليم مصر ، كما امر باسترداد جميع الكنائس التى اغتصبها الروم خاصة فى الاسكندرية .

اما عن جهود البابا بنيامين الرعوية فى هذه الفترة فنستطيع تلخيصها في مايلى :

(١) تثبيت الايمان الارثوذكسى بين اقباط مصر ، وعودة الذين ضلوا عن الايمان باتباعهم الايمان الخلقيدونى .

(٢) دعوة الاساقفة الذين ضعفوا تحت وطأة اضطهاد قيرس (المقوقس) ، بالرجوع الى حضن الكنيسة . وبالفعل عاد كثيرون وهم يذرفون دموعا غزيرة .

(٣) أقام اساقفة جددا مكان الاساقفة الخلقدونيين ، بعد ان تعذر على الروم ارسال بطريرك جديد الى مصر مدة ٧٧ عاما بين سنتى ٦٥١ ، ٧٢٨ .

(٤) اعاد رأس القديس مارمرقس بعد ان سرقها احد البحارة من كنيسة مارمرقس بالاسكندرية وكانت تقع على السور الشرقى للمدينة ، وكانت ملفوفة بلفائف ، وظنه مالا مخبئا — وبمعجزة الهية لم تبحر المركب التى كانت فيها الرأس . فخرج البابا ومعه الكهنة وحملوا الرأس المقدس وسط التسابيح ... وكانت كنيسة مارمرقس قد أحرقت اثناء فتح العرب الثانى للاسكندرية فى صيف سنة ٦٤٦ م . وقد اعاد بناءها خلفه البابا اغثون ٣٩ .

(٥) ومما يذكر للبابا بنيامين انه دشن كنيسة الانبا مقار بديره ببرية شيهيت . ويروى انه فى اثناء صلوات التكريس شاهد الانبا بنيامين الانبا مقار حاضرا بين اولاده رهبان الدير ، فظنه واحد منهم ووضع فى قلبه أن يرسمه اسقفا حينما يخلو احد الكراسى ، لكن السيرافيم ظهر له واعلمه بحقيقة هذه الشخصية وهو انه انبا مقار ابو البطاركة والاساقفة ... ووقت الدهن بالميرون رأى البابا بنيامين يد السيد المسيح تمسح معه الهيكل ...

البابا خائيل البطريرك ٤٦ (٧٤٤ — ٧٦٨) :

ظل كرسى البطريركية شاغرا لمدة سنة ونصف قبل رسامته ، حدث خلالها مشادات ممن يصلح لهذا المنصب . واخيرا اعطيت علامات من الرب بخصوص اختيار هذا البابا الذى كان مترهبا بدير القديس ابو مقار ببرية شيهيت . وقد احتمل هذا البابا شدائد وضيقات واضطهادات تجل عن الوصف مما اشرنا اليه سابقا فى اكثر من موضع . وقد عاصر نهاية الدولة الاموية وقيام العباسية ... حاول الخلقيدونيون (الملكانيون) ان يضعوا ايديهم على بيعة مارمينا العظيمة بمريوط . وقد قويت شوكتهم بعد ان اقيم لهم بطريركا يدعى قسما (٧٢٨ — ٧٥٦) ... وكان عضدهم هو ثاوفيلكتس بطريرك الروم فى الشام الذى كان مقربا للخليفة الاموى مروان بن محمد . واستطاع ان يحصل من الخليفة على خطاب الى والى مصر عبد الملك بن مروان للتحقيق فى ملكية بيعة مارمينا المشار اليها . وقد حقق الوالى الموضوع بنفسه اولا ، ثم احاله الى احد القضاة ... قدم الخلقدونيين رشوة للقاضى ، ورغم وضوح ثبوت ملكية البيعة للاقباط فانه اخذ يماطل ... فاقترح البعض ان يدفع البطريرك خائيل شيئا للقاضى . فتصدى الانبا موسيس اسقف اوسيم وقال انه

ما يليق بالبطاركة والاساقفة ان يدفعوا رشوة لاحد ، والله لن يتخلى عنا • وفى نفس الاسبوع عزل القاضى المرتشى ، واقيم آخر وكان شخصا لا يحابى ، فحكم بملكية الاقباط لهذه الكنيسة •

وفى اثناء نظر قضية ملكية كنيسة مارمينا بمريوط جرت اول محادثات للوحدة المسيحية فى مصر بين الاقباط والروم الملكانيين فى مارس او ابريل سنة ٧٤٩ ••• كانت المبادرة من جانب الملكانيين لكنها لم تكن بنية خالصة ، وكانت نتيجة لفشلهم فى وضع يدهم على بيعة مارمينا بمريوط ••• ارسل البابا خائيل يستطلع رأيهم فى هذه المسألة • فكان جوابهم انها خدعة • لكن الانبا موسيس اسقف اوسيم رأى ان يجربوا ويرسل اليهم وفدا لمعرفة رأيهم • وفعلا ارسل البطريرك اثنان للتباحث هما القس مينا كاتب البطريرك (وهو الذى خلف البابا خائيل فى البطريركية) والشماس يحنس كاتب سير البطاركة • وكان الاول علما بكتب البيعة • اجتمع الاثنان مع قسما بطريرك الملكانيين وقسطنطين اسقف مصر الملكى ••• اعترف الاثنان بطبيعة واحدة للمسيح بعد الاتحاد وليس طبيعتين ولما طلب منهما ان يحررا اعترافهما كتابة ليحملوه للبابا ، لكنهما سألا عن وضعهما ووضع باقى الاساقفة الملكانيين بعد الاتحاد • وطلب قسما البطريرك الملكانى ان يعامل كأب مثل البابا خائيل ، ويحضر جميع الشعب مثله • فطلب القس مينا الرجوع للبطريرك • فلما سمع الاساقفة الاقباط طلب قسما ، صاح انبا موسيس انه لايكون هناك بعد الوحدة ابوان ، بل اب واحد للكنيسة • واقترح ان كان قسما يقبل ان يكون اسقفا على مصر ويكون اخا للاساقفة ••• ولما اخبر قسما بطريرك الملكانيين بذلك فرح اولا ، الا ان شماسا من الاسكندرية يتبعه ، تدخل وافسد هذا الاتفاق المبدئى للوحدة ، لانه كان يطمع ان يكون اسقفا • وهكذا فشلت اول مباحثات للوحدة المسيحية ، لكنها نجحت فى ضم قسطنطين اسقف مصر ا... الملكانى الى الكنيسة القبطية الارثوذكسية •

اعتقل البابا خائيل شهرا كاملا فى السجن (٨ سبتمبر – ٩ اكتوبر ٧٤٩ م) ، وكان معه انبا موسيس اسقف اوسيم وانبا تادرس اسقف مصر • واعطاه (البابا خائيل) الرب نعمة فى عيون المسجونين مسيحيين ومسلمين وغيرهم ، وكانوا يعترفون له بذنوبهم التى فعلوها • فكان يعزيهم ويصبرهم ويقول لهم انهم ان نذروا توبة حقيقية وعدم العودة لمثل الذنوب التى فعلوها فان الله يخلصهم قبل انتهاء السنة • فعاهدوه جميعا على ذلك • وقد تمجد الرب وتم ما قاله حرفيا • وقد افرج عنه الوالى بعد ما ضمنه بعض اراخنة الاقباط فى ان يذهب الى الصعيد ليجمع ما يمكن

جمعه من الاقباط ويقدمه للوالي • واعطاه الرب نعمة في هذه الجولة وتمت على يديه معجزات شفاء كثيرة •

وحدث يوم خروج البابا خائيل من السجن بعد اعتقاله شهرا ، ان طلب اليه الشعب ان يصلي معهم قداسا • وبالفعل رفع القرابين في كنيسة سرجيوس وواخس (ابي سرجة) بمصر القديمة ••• ولما حان وقت التناول تقدم اليه رجل ليتناول من الاسرار المقدسة ، فمنعه ولم يناوله • وفي نهاية الخدمة حضر هذا الرجل للبابا البطريرك باكيا ليعرف سبب منعه من تناول الاسرار المقدسة فقال له البطريرك انه لم يمنعه ، لكن السيد المسيح هو الذى فعل ذلك ، وطلب اليه ان يعترف بخطيئته ••• فاعترف الرجل وقال انه كان يتناول طعام الافطار في بيته ثم يأتي الى الكنيسة ويتقرب من الاسرار • وهكذا فعل في ذلك اليوم ليتناول من يد البابا • كان ذلك سببا في ان اصدر البابا خائيل تعليماته الى الاكليروس لكي يحذروا الناس من ذلك •

وحدثت معجزة عجيبة ببيعة العذراء مريم بالاسكندرية ، حينما دخل شاب غير مسيحي ورأى صورة السيد المسيح على الصليب والجندى يطعنه في جنبه بالحربة • وسأل الشاب عن معنى الصورة فقيل له انها تعبير عن خلاص العالم • فما كان من ذلك الشاب الا ان اخذ قصبة وطعن الصورة في الجانب الايسر في استهزاء • وللوقت تصلب الشاب والتصقت يده بالقصبة التى طعن بها صورة المصلوب ، وصار معلقا هكذا وهو يصرخ طوال اليوم • فصلى الشعب الحاضرين كيرياليسون ••• ولم يعد الشاب الى حالته الطبيعية الا بعد ان اعترف ان تلك الصورة هى للمسيح المخلص •• وبعدها قصد ذلك الشاب احد الاديرة وتعمد هناك •

اما عن الضيقات الكثيرة التى احتملها هذا البابا فقد اشرنا لليها في اماكن متفرقة من هذه المذكرة

البابا يوساب البطريرك ٥٢ (٨٣٠ _ ٨٤٩) :

لما خلا الكرسى البطريركى بعد نياحة البابا سيمون الثاني ، حاول شعب الاسكندرية ان يقيموا شخصا يدعى اسحق لبن لمدونة صاحب ديوان السلطان بالفسطاط على الكرسى البطريركى نظرا لثرائه الكبير ومركزه ••• وكان الرجل علمانيا متزوجا ، وللاسف فان اسقفى مصر واوسيم

حبذا هذا الاختيار • فما كان من بقية الاساقفة الا ان عقدوا مجمعا بالاسكندرية ووبخوا الاسقفين بقولهم " اين تركتم خوف الرب وخالفتم القوانين ، حتى انكم عمدتم برجل علمانى متزوج بامرأة لتجلسوه على كرسى مارمرقس الانجيلى بخلاف ماجرت به العادة والقوانين " • وكان فى هذه الكلمات فصل الخطاب ، فلزموا الصمت وما عادوا يذكرون ذلك العلمانى • وعرضوا اسم القس يوساب المترهب بدير انبا مقار فانفذ مجمع الاساقفة بعض الاساقفة وكهنة الاسكندرية الى برية شيهيت • وبينما هم سائرون وضعوا علامة وقالوا " ان كان الرب يختار تقدمة هذا الانسان (يوساب) ، فاننا نجد باب قلايته مفتوحا ••• ولما وصلوا الى الدير اتجهوا نحو قلايته فوجدوه قائما وقد خرج ليغلق بابها ••• فكانت هذه علامة ان الرب اختاره •••

وقد امتلأ تاريخ هذا البابا بالازمات والمشاكل والضيقات : منها موضوع اسقفى تانيس ومصر اللذين طلب شعباهما ابعادهما والا تركا الكنيسة وانتهى الامر بقطعهما من الكهنوت بقرار مجمعى ••• وفى ايامه ثار البشموريون وكان ذلك فى خلافة المأمون العباسى ، الامر الذى اشرنا اليه سابقا • وقد تعرض للموت بضربة عنقه بالسيف بواسطة اخى الافشين قائد الجيش بوشاية اسقفى تانيس ومصر كما اسلفنا سابقا •

قام البابا يوساب برسامة اسقفين لتانيس ومصر كما اسلفنا بدل الاسقفين المقطوعين ، كما رسم اساقفة كثيرين اوفدهم الى انحاء الكرازة المرقسية فى افريقيا والخمس مدن الغربية ومصر والحبشة والنوبة •

وفى ايامه اصدر المعتصم الخليفة العباسى امرا الى واليه على مصر بتجريد الكنائس من زينتها ، وبنزع منها الاعمدة الرخامية • ومن الكنائس التى خضعت لتنفيذ هذا الامر بيعة مارمينا بمريوط ، على يد نسطورى يدعى لمازر • هذا وقد سبق ان اشرنا الى الضيقة التى سببها تادرس الذى اشتهى اسقفية اوسيم ، ويوحنا اسقف مصر الذى اشتهى ان يكون متقدما على بقية الاساقفة •

كان البابا يوساب يعد شابا من الافريقيين — ممن كانوا يهدونهم ملوك الحبشة والنوبة المسيحيين — ليكونوا بمثابة ارساليات للكرازة فى بلاد الحبشة وغيرها من البلاد الافريقية •••

فتح البابا لهؤلاء الشبان مدرسة لتعليمهم قواعد الدين المسيحى فى البطريركية • لكن اسقف مصر المقطوع من الكهنوت وشى الى قاضى مصر ان هؤلاء الشبان مسلمين ••• فما كان من القاضى الا ان ارسل واحضر هؤلاء الشباب ، كما استدعى البطريرك وعنفه قائلا " لاينبغى ان تخطف ابناء المسلمين لتنصرهم " • فأجابه البابا " هؤلاء نصارى اولاد نصارى ارسلوا الى من ملكى النوبة والحبشة " ••• فاتى القاضى بالشبان امام البطريرك ، ونظرا لعظم تهديد القاضى لهم ، اعترفوا بالاسلام امامه ••• وانتهى الامر بأن صار هؤلاء الشبان عبيدا واقتسمهم اعيان المسلمين •

وقد احتمل هذا الاب البطريرك شدائد كثيرة ، واهانات بالغة ذكرنا بعضها فى غير هذا الموضع ••• ولما اكمل سعيه الحسن اراد الله الذى لاينسى تعب المحبة ، ان يريحه من اتعاب هذا العالم الفانى فنقله اليه • وكان انتقاله فى يوم احد وقت تناول الاسرار المقدسة •

انبا موسيس اسقف اوسيم :

من أعلام الكنيسة وقديسيها العظام فى القرن الثامن الميلادى • نشأ على حب الطهارة والبتولية منذ نعومة اظفاره ، وتعلم علوم البيعة ، ترهب منذ شبابه فى برية شيهيت ، وعاش فى طاعة احد الاباء النساك لمدة ثمانية عشر عاما سالكا فى طريق الفضيلة والنسك الشديد • وبسبب ذيوع فضيلته اختير اسقفا لاوسيم (مركز امبابه بمحافظة الجيزة) ••• وكانت حياته مدة الاسقفية امتدادا لحياته الرهبانية فى البرية ••• عاش حياة التجرد واتصف بالتقوى والشجاعة • كان يقضى معظم اوقاته فى العبادة ، حتى قيل انه كان لايقابل احدا من الشعب الا فى يومى السبت والاحد ••• وكان غيورا على الايمان الارثوذكسى •

اعطى موهبة صنع الآيات والعجائب وشفاء الامراض ، كما اعطى موهبة النبوة ••• جاء وقت على الكنيسة ، من شدة الضيق عاد الاساقفة الى اديرتهم ليتفرغوا للصوم والصلاة ليرفع الرب الضيقة • اما الانبا موسى فقد استمر مع شعبه يثبتهم ويحفظهم من الذئاب الخاطفة ••• واتاه يوما بعض اراخنة مصر وطلبوا اليه ان يصلى الى الله ليرفع الضيق عنهم وعن شعبه ، لانهم أحصوا الذين اعتنقوا الاسلام فوجدوا عددهم اربعة وعشرين الفا • فقال لهم آمنوا يااولادى ان الوالى الذى يضطهدكم يهلك فى بحر هذا الشهر ••• فعلا تم الامر كما قال •

عاصر هذا الاسقف البابا خائيل البطريرك ٤٦ ، وحاول الخلقيد ونيون باسلوب ملتوى وللتشفى ان ينزعوا ما فى بيعة مارمينا بمريوط من زينة رخامية واعمدة ... وعرضوا اراخنة الشعب على البطريرك ان يدفع رشوة للقاضى ، لكن الانبا موسيس تصدى لاصحاب هذه المشورة وقال انه ما يليق بالبطاركة والاساقفة ان يدفعوا رشوة لاحد ، والله لن يتخلى عنا ... وحدث انه فى ذات الاسبوع عزل القاضى المرتشى ..

وفى اثناء ثورة البشموريين الاقباط سأل انبا موسيس تلميذ له عن نهاية الامر . فكان جوابه ان الله لايترك بيعته الى النهاية ، بل يخلصها . وهذه المملكة (دولة بنى امية) تبيد وتحل محلها دولة اخرى . وقد تمت هذه النبوة بسقوط دولة بنى امية ، وقيام دولة العباسيين .

ولما اضطهد مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين ، البابا خائيل ٤٦ لازمه الانبا موسيس واشتهى ان يستشهد ويسفك دمه على اسم المسيح ... وما ان وصلا (البابا والانبا موسيس) الى خيمة مروان طرح الجند الانبا موسيس على ركبتيه ورفعوا رجليه الى اعلا وضربوه بدبابيس نحاس على جنبيه وعلى رقبته . وكان المعذبون يطلبون منه رشوة ليطلقوه ، اما هو فلم ينبث ببنت شفة لانه كان لايفهم لغة الجند العربية .

وامر مروان بقطع رقبة البابا خائيل بالسيف . وساقه السياف الى موضع تنفيذ حكم القتل . فجرى خلفه الانبا موسيس . حاول السياف منعه ، لكنه لم يمتنع ، حتى غضب منه احد الجند ورفع عليه دبوس نحاس ليضربه به ، فمد القديس رأسه ، لكن بعض الموظفين منعوا الجلاد من ضربه ثم زج به فى السجن مع البابا ، ووضعت القيود فى ارجلهما مع كثيرين . لكن انبا موسى تنبأ بأنهم سيخرجوا من السجن سالمين ، وبالفعل تم قوله بهزيمة مروان امام العباسيين .

استمر الانبا موسيس مرافقا للبابا خائيل ، وفيا له وللكنيسة طوال ايام تجاربه المرة . واخيرا مرض ، وعلم بدنو ساعة رحيله من هذا العالم ، فاستدعى رعيته واوصاهم وباركهم وتنيح بسلام .

النساك القديسون فى البرارى والاديرة :

يعسر علينا ان نحصى القديسين من النساك الذين حرصوا كل الحرص على ان يخفوا فضائلهم كتدريب مستمر لاماتة الذات ، لكننا نذكر منهم :

الانبا يوحنس قمص شيهيت (هذا غير يوحنس القصير) الذى كان يظهر له المخلص وامه العذراء فى كل مرة يقدس القرابين • وكذلك تلميذه ابيماخس القمص الذى شبهوه بموسى النبى للنعم التى كانت تبدو عليه ، والذى اعطى موهبة شفاء الامراض وعمر اكثر من مئة عام • وكذلك القديسان انبا ابرام ورفيقه انبا جوارجى • والقديس انبا اغاثون العمودى الذى ترهب بدير ابو مقار وتوحد فى جهة سخا (بمحافظة كفر الشيخ) ••• وغيرهم كثيرون جدا •

العلماء وكتاب السير :

(١) يوحنا النقيوسى : نعرف القليل عن حياته الخاصة مما جاء عرضا فى تاريخ البطاركة للانبا ساويرس بن المقفع • عاش فى النصف الثانى من القرن السابع ، بعد الفتح العربى لمصر مباشرة سيم أسقفا على نقيوس واسند اليه تدبير أديرة وادى النطرون • وحدث انه تطرف واشتد فى تأديب احد الرهبان الذى وقع فى خطيئة زنا ، وضربه ضربا مبرحا حتى مات بعدها بقليل • وكان ذلك سببا فى ان مجمع الاساقفة قطعه واسقطه من رتبته •

وترجع شهرة يوحنا النقيوسى الى كتابه الذى الفه فى التاريخ العام ، ودون فيه تاريخ العالم منذ الخليقة حتى اواخر القرن السابع الميلادى • ويعتبر يوحنا الى حد ما معاصرا للفتح العربى لمصر • وقد اسهب فى ذكر حوادث ذلك الفتح ، مما جعل لكتابه هذا قيمة خاصة ، واصبح بذلك مصدرا لاغنى عنه للباحث فى تاريخ تلك الفترة ••• ولقد ضاع هذا الاثر النفيس بلغة الاصلية • ولكن يوجد نص كامل للكتاب باللغة الحبشية القديمة (الجعز) •

(٢) مينا أسقف نقيوس الذى كتب سيرة البابا اسحق البطريرك ٤١ •

(٣) الشماس جرجه الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى واوائل الثامن ، وكتب سير البطاركة منذ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ الى سنة ٧١٧ م •

(٤) الانبا زخارياس اسقف سخا الذى ترهب فى دير يحنس القصير ، وكان على صلة روحية بالقديسين ابرام وجوارجى • رسم بيد البابا سيمون الاول البطريرك ٤٢ حوالى سنة ٦٩٣ م — وكتب سيرا كثيرة وميامر منها ميمر مجئ السيد المسيح الى مصر •

+ + + + +